سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ

عَظَمَةُ الْفِطْنَةِ

فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

٣

اَلْمُؤَلِّفُ : مُحَمَّد فَتح اللهِ گولن

اَلْمُتَرْجِمُ
أورخان محمد علي

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٣

ترجمة كتاب (Sonsuz Nur) عن التركية

محفوظة جميع الحقوق

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة: ١٤٢٥هـ - 2005م

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 975-315-175-6

الهاتف: (٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١+) فاكس: (٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢+) استانبول / تركيا

مركز التوزيع/فرع القاهرة: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٦١٩٢٠٤+

موقع الأستاذ م فتح الله كولن على الإنترنت:

www.ar.fgulen.com

سِلْسِلَةُ النُّورِ الْخَالِدِ ٣

عَظَمَةُ الْفِطْنَةِ

فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

اَلْمُؤَلِّفُ : مُحَمَّدْ فَتْحُ اللهِ گُولَنْ

اَلْمُتَرْجِمُ : اُورَخَانْ مُحَمَّدْ عَلِي

بسم الله الرحمن الرحیم

الفصل الرابع: الفطنة

الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، وقد بينا سلفا أننا يمكن أن نقول إنها منطق النبوة؛ وهذا المنطق هو النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحس وسائر اللطائف الإنسانية.

إن الفطنة ليست عقلاً ومنطقاً جافّاً فحسب، بل إن إضافة الإسلام إلى العقل والمنطق فحسب والقول بأن "الإسلام دين العقل" أو "دين المنطق"، ليس فقط جهلاً بالإسلام، بل يعد الخطوة الأولى لتحريف كبير. كلاّ! ليس الإسلام دين العقل أو المنطق فحسب كما يدعون... بل إنه دين الوحي الالهي.

وإنّ عدم تناقض المسائل الإسلامية مع العقل والمنطق يعود إلى كون الإسلام آتياً من العلم الإلهي المحيط بكل شيء، ومفسَّراً بالمنطق النبوي الشامل بما يليق بمصدره السماوي، أي أنه إلهام نبوي ومنطق نبوي. هذا المنطق الذي له قدرة على تلقي الوحي الإلهي والذي ينفتح للحس والقلب والعقل والفسلفة التي تأتي بمعنى اللطائف والحكم... أي أنه منطق فوق المنطق العادي، لذا نستطيع أن نسميه بـ"الفطنة العظمى".

إن كل وحي إلهي يجب أن ينعكس ضمن هذا المنطق. فهو حاجة وضرورة في الوقت نفسه. غير أن هذه الحاجة حاجة إنسانية فقط، ذلك لأن الوحي الإلهي إن لم يمر من المنطق النبوي ويعيَّر فيه وينظَّم -كما يعيَّر التيار الكهربائي ذو

الضغط العالي، أو يتم تبديل التيار المتقطع إلى تيار دائم- ووصل إلى البشرية مباشرة لانصعقت منه ولاحترقت أمام هذا الوحي الإلهي. مثلما يحترق كل شيء إنْ رفع الله تعالى الحجب والأستار عن وجهه.(١)

أجل، إن فطنة الأنبياء تقوم بوظيفة الغلاف الجوي إزاء شهب الوحي الحارقة وهذا هو ما نطلق عليه اسم "الدين". أي التنزلات الإلهية التي تنزل إلى مستوى الإدراك البشري؛ والمنطق النبوي أي الفطنة النبوية هي التي تقوم بهذه المهمة. لذا، كان وجود الفطنة لدى كل نبي أمراً ضرورياً. ومن الخطأ أن نصف هذا المنطق بكلمة "العبقرية"، لأن منطق الأنبياء فوق كل منطق، ويسمى "الفطنة".

ولو لم توجد الفطنة لدى الأنبياء لما كان بإمكانهم الإجابة عن كل اعتراضات أعدائهم وعن كل استفسارات وأسئلة أنصارهم وإيضاح جميع المسائل لهم. ولو عجزوا عن القيام بهذا لأدّى ذلك إلى نتيجة حتمية وهي عدم وضوح الدين وصعوبة فهمه، فلا يكون هناك معنى لفروضه. وعندما لا يكون هناك معنى لفروضه أصبح خلق الإنسان عبثاً.

ولكي لا تحصل كل هذه النتائج السلبية كان من الضروري تجهيز الأنبياء بمنطق خارق للعادة، مما مكنهم من حل جميع المشاكل والعقد والمصاعب بيسر وسهولة.

---

(١) عن أبي موسى: «حجابه النور -وفي رواية: النار- لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه.» **مسلم**، الإيمان، ٢٩٣؛ **ابن ماجه**، المقدمة، ١٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٠١/٤

فطنة نبينا ﷺ

لو تأملنا العهد الذي عاش فيه نبينا ﷺ لوجدنا أن الصحابة كانوا يسألونه عن المسائل الشرعية المستعصية عليهم، كما كانت هناك الأسئلة والشبهات التي تدور في أذهان بعض الذين يرغبون في الدخول إلى الدين الإسلامي والتي تنتظر الإجابة عليها إجابة شافية، وإضافة إلى كل هذا كانت هناك الشبه والشكوك التي كان يشيعها بين الناس بعض أهل الكتاب الذين كانوا يحسدون النبي ﷺ ويغتاظون منه. و لم يكن في الإمكان الإجابة عن كل هذه الإسئلة والشكوك إلا بمنطق النبي، أي بالفطنة النبوية.

كما كان الناس الذين كان يخاطبهم النبي ﷺ على درجات مختلفة من الفهم ومن الإدراك. فبعضهم كان من رجال الدين الذين قضوا جزءاً كبيراً من حياتهم في الكنائس والأديرة واكتسبوا علماً في بعض المجالات وعمقاً في فهم النفوس؛ ومنهم من تعمق في الأمور الفلسفية وأصبح رجل عقل ومنطق؛ ومنهم من أصبح له اليد الطولى في التجارة والاقتصاد، أو أصبح قائداً محنكاً في الحروب أو سياسياً داهية، أو كان بدوياً لا يعرف شيئا من أمور الدنيا. وكل واحد من هؤلاء كانت له مشكلته التي تنتظر الحل وأسئلته التي تحتاج إلى أجوبة. ومن ثم فقد كان على رسول الله ﷺ إذا تحدث أن يقول كلاماً يفهمه البدوي ويفهمه من هو في الذروة من الفهم، وأن يأخذ كل واحد منهم نصيبه من الفهم على قدر علمه، وأن تستمر هذه الصفة الشمولية للدين حتى قيام الساعة.

إن الإنسان كائن ناطق وكائن عاقل ومفكر. وهو بهذه الصفة يمثل -بشكل جزئي- صفة تعود لله تعالى. فإن انقلبت الأفكار إلى كلام، وإن انقلب الكلام إلى كتابة تم اكتساب الديمومة. إن الأفكار والمبادئ التي لا يتم الحديث عنها، والتي لا تسجل ولا تكتب أفكار تموت بموت صاحبها وتفنى وتزول. فكما أن قابلية التفكير لدى الإنسان نعمة، كذلك فإن قابلية الكلام والتعبير عن الأفكار نعمة إلهية كبرى للإنسان. لذا، نرى القرآن الحكيم عندما يتحدث عن رحمانية الله تعالى يذكر بعد خلق الإنسان مباشرة ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٤).

فالإنسان يفكر ويتكلم منذ عهد آدم عليه السلام، وسيظل يفكر ويتحدث حتى يوم القيامة. فالأفكار والكلام والبيان لا يمكن أن ينتهي، وهذا من الرحمة الشاملة لله تعالى. وتتمثل هذه الرحمة الشاملة وتتجلى أكثر لدى الأنبياء ولاسيما لدى رسولنا محمد ﷺ. وهذا المستوى السامي لهم في هذا الأمر لا يفسر إلا بوجود الفطنة عندهم، فبغير الفطنة ما كان لهم أن يحتلوا هذه المرتبة، إذن، فالفطنة من أهم صفات الأنبياء.

إن كل نبي يملك قدرة إدراك كبيرة، وقدرة علي التعبير عنها، إذ يستطيع حل أعضل المشاكل بسهولة ويعبر عنها بأسهل العبارات وأوضحها. فبيانهم من نوع "السهل الممتنع" أي من النوع الذي يحسب السامع أنه يستطيع قول مثله. ولكنه عندما يحاول أن يتحدث وأن يتكلم مثلهم يرى أنه عاجز عنه. ذلك لأن قدرة شرح وبيان المسائل المعضلة هبة إلهية لهم. فسحر الحديث ورونقه لدى الأنبياء لا يوجد عند غيرهم.

كل مشكلة أو معضلة تعرض على النبي تجد لها حلاً بكل تأكيد. ومهما كانت تلك المشكلة فريدة في نوعها فإن النبي يتحدث عنها ويحلها وكأنه يملك

خبرة أربعين سنة في ذلك الموضوع. لهذا نرى "جورج برنارد شو (George Bernard Shaw)" يقول في حق رسول الله ﷺ: "إن محمداً يستطيع أن يحل أعقد المشاكل التي يعاني منها عالمنا الحالي وهو يشرب فنجاناً من القهوة."

أجل، فما أكثر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يزخر بها عصرنا الحالي والتي تنتظر الحلول. ولقد وضح للأصدقاء وللأعداء أن هذه المشاكل لا يمكن حلها أبداً دون الرجوع إلى نبع بيان الرسول ﷺ. هناك أقوال كثيرة حول فطنته ﷺ؛ ولو جمعت هذه الأقوال لأصبحت مجلداً ضخماً. وسنذكر هنا مثلين اثنين فقط حتى ننهي هذا البحث الواسع.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه حبر الأمة وترجمان القرآن: "إن أفضل الناس وأعقلهم هو نبيكم محمد ﷺ." وقال وَهْب بن مُنبِّه، وهو من علماء التابعين، وقد قرأ التوراة والإنجيل بدقة: "قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً." وفي رواية أخرى: "فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يُعْطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا."[1]

أ- **أمثلة من فطنته ﷺ**

١) **تعمير الكعبة**

كان الناس في الجاهلية أهل فتنة وفساد. فكأن وظيفتهم في هذه الحياة هي إيقاد الفتنة. فما أن يجتمع منهم ثلاثة، حتى تظهر بينهم فتنة. ولا شك أن القيام

(١) «**الشفاء**» للقاضي عياض ٦٧/١؛ «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٢٦/٤

بجمع مثل هؤلاء الناس على صعيد واحد وتربيتهم وتهيئتهم ليكونوا أساتذة العالم فيما بعد يعد معجزة خاصة برسول الله ﷺ، وقد أنجز هذه المهمة بفطنته ذات البعد السماوي.

لقد توافق أن بدأ المشركون في تعمير الكعبة قبل نبوة سيدنا محمد ﷺ. وما أن انتهوا من تعمير البناء حتى كادت أن تقوم بينهم فتنة عظيمة وحرب ضروس بسبب اختلافهم على وضْع الحجر الأسود في مكانه. فكل قبيلة تتمنى أن يكون لها هذا الشرف، ومن ثم استلت السيوف من أغمادها وأخرجت السهام من كنائنها وأشرعت الرماح. ولم يكن رسول الله ﷺ قد بُعِث بعد نبيّاً؛ ولكن بذرة النبوة كانت مكنونة في روحه تنتظر مجيء الربيع لكي تزهر وتتفتح. كان الوضع ينذر بقتال مشؤوم، وما كان أحد يدري كم ستطول هذه الحرب الداخلية إن نشبت، ولا عدد الضحايا الذين سيقعون فيها، ولا مقدار الأموال التي ستتلف. ولا يدري أحد كيف خطر ببال أحدهم أن يقترح تحكيم أول من يدخل عليهم من الباب الفلاني، وأن عليهم أن يقبلوا حُكْمه، وكيف قَبِل الجميع هذا الاقتراح. لقد بدأوا ينتظرون بلهفة أول قادم عليهم من هذا الباب... وهنا كان سيدنا محمد ﷺ أول الداخلين من هذا الباب. عندئذ هتفوا بسرور: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد" وعندما أخبروه بالأمر ودون حاجة إلى أي تفكير طلب منهم أن يأتوه برداء، فلما فعلوا وضع الحجر الأسود في وسطه وأمسك كل رئيس قبيلة بطرف منه وساروا حتى موضع الحجر حيث حمله سيدنا محمد ﷺ ووضعه في مكانه.[1]

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٤٢٥/٣؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٠٩/١

وهكذا حال دون وقوع حرب داخلية كبيرة بين القبائل. و لم يجد حاجة إلى أي تفكير لحل هذه المعضلة، بل توصل إلى الحل بسرعة وفي سهولة ويسر... أليس هذا منطق النبوة؟ في الحقيقة إنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيّاً و لم يكن الوحي قد نزل عليه. غير أن هذا كان منطق وفطنة الشخص المرشح لوظيفة كبيرة ومهمة صعبة مثل مهمة النبوة... أجل، كان عنده منطق فوق المنطق الاعتيادي وعقل فوق العقول وفطنة فوق الفطن. وكان هذا ضرورياً لشخص سيحمل دعوة كدعوة القرآن الكريم.

٢) إسلام حُصين

لقد جاء حُصين إلى النبي ﷺ ناويا نصحه وإقناعه بترك دعوته. ولقد كان النبي ﷺ يملك قدرة خارقة في معرفة محدِّثه والوقوف على مستواه، لذا نراه يخاطب محدثه بعبارات غاية في الدقة بحيث لو بُدّلت كلمة واحدة منها، أو وُجهت نفس العبارات إلى إنسان آخر له شخصية مختلفة عن الأول لَما وصل إلى الهدف المنشود أبدا. فرسول الله لا يبارَى أبداً في انتقاء الكلمات المناسبة وفي معرفة مستوى الشخص الذي يخاطبه. ومن المستحيل أن تجد أحداً آخر له مثل هذه القابلية. لقد كانت هذه ملَكة طبيعية عنده بحيث يَعرِف ويُعيِّن بسرعة أينَ ومع مَنْ يتكلم، وكيف يتحدث. ومن ثم كانت كل كلمة ينطقها ضرورية وفي محلها تماما. فكما لا تجد في أي كلام أو حديث له كلمة خاطئة، كذلك لن تجد فيه أي كلمة زائدة ليس لها ضرورة. دققوا إن شئتم كل كلام تحدث به كلمة كلمة فلن تجدوا كلمة واحدة زائدة لا لزوم لها في أي جملة من جمله... فإذا لم تكن هذه فطنة فما هي الفطنة إذن؟

انظروا كيف سحرت هذه الفطنة حُصيناً... فبعد أن أنهى حُصين كلامه سأله رسول الله ﷺ بكل رقة وأدب: «يا حُصين! كم تعبد من إله؟» قال: سبعاً في الأرض وواحداً في السماء.[1] قال ﷺ: «فإذا أصابك الضر مَن تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال «فإذا هلك المال مَن تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده وتُشرِكهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: «وعلمت أني لم أكلم مثله» قال: «يا حُصين! أَسْلِمْ تَسْلَمْ.» قال: إن لي قوماً وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل اللّهم إني أستهديك لأرشد أمري. وزِدْني علماً ينفعني.» فقالها حُصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران[2] فقبَّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال:

«بكيتُ من صنيع عِمران، دخل حُصين وهو كافر فلم يقم إليه عِمران و لم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة»، فلما أراد حُصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه: «قوموا فشيّعوه إلى منزله.» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا: صبأ. وتفرقوا عنه.[3]

والحقيقة أن الجمل الواردة في هذا الحوار جمل بسيطة جدّاً وواضحة ومختارة بشكل مناسب لوضع حُصين ولمستواه العقلي، فلم يبق أمام حُصين بعد الجملة

---

(١) الإله الذي عناه في السماء هو الله تعالى، الذي لم يستطيعوا إزالته من القلوب. ذلك لأن فكرة الله تعالى فكرة وإيمان راسخ قد امتدت جذوره إلى القلوب، بحيث أن العهد الجاهلي الطويل لم يستطع مسحه وإزالته. ويكفي هنا أن يقوم اللسان بالترجمة الأمينة والصادقة لصوت القلب.

(٢) عمران وهو ابن حصين. (المترجم)

(٣) «**الإصابة**» لابن حجر ٣٣٧/١

الأخيرة للرسول ﷺ سوى التلفظ بالشهادتين: أشـــهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمداً رسول الله.

أي أن الشخص المخاطب هنا ليس أمامه ســـوى ســـبيلين: إمـــا النطـــق بالشهادتين والحصول على النجاة الأبدية، أو الاستمرار في العناد وترك مجلـــس الرسول ﷺ دون النطق بكلمة واحدة... و لم يكن أمامه خيار آخر.

٣) التحدث حسب مستوى البدوي

البدوي إنسان يعيش في الصحراء، قد ينسى حاجاتـــه في مكـــان، وقـــد يصادف عاصفة رملية فيحأر بالشكوى... تأملوا حال مثل هذا الإنـــسان... ماذا يفعل إن ألـــمّت به مصيبة أو حاصرته ضائقة..؟ لا شك أنه سيقول مـــا قاله حمزة ﷺ لرسول الله ﷺ... قال حمزة للرســـول ﷺ في أثنـــاء اهتدائـــه للإسلام: "يا محمد، يا ابن أخي..! عندما أجوب الصحراء بالليل أُدْرِك أنّ الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جُدران."

أجل، هكذا كان يقول كل من رأى عدم نفع اللات والعُزّى وهُبَـــل، لأن ضمائرهم كانت تهتف بهذه الحقيقة الموجودة في أعماقهم... وكانـــت هـــذه الضمائر تقول الحق. لذا، فكم من أناس جاءوا إلى الرسول ﷺ وهم في هـــذه الحالة النفسية والروحية؛ وبعد قيامهم بطرح أسئلتهم البدوية وتلقيهم أنـــسب الأجوبة وأكثرها ملاءمة لحالتهم ولعالمهم الروحي، يعلنون عن اهتدائهم للحق ويصبحون نجوماً متلألئة في سماء الهداية.[1]

(١) انظر: «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١/١٣٢

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن أبي تميمة الهُجَيْمي ﷺ عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم»، قال: فإلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله ﷻ وحده مَنْ إذا كان لك ضُرٌّ فدعوتَه كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام[1] فدعوته أَنْبَتَ لك. ومن إذا كنت في أرض قفر فأضللت فدعوته رَدَّ عليك» قال: فأسلم الرجل.[2]

ما أروع هذا الكلام الموجه للبدوي! فكل جملة فيه تخاطب موضوعاً حيوياً بالنسبة إليه: الجدب، البلايا، المصائب، المصاعب في حياة الصحراء...

فهو يحدثه عن هذه البلايا والضنك والمصاعب التي يعرفها البدوي عن قرب، ثم يحدثه عن القوة اللانهائية التي لا ملجأ ولا منجى منها إلا إليها. إنه يخاطب ضميره الذي يرتفع فيه صوت هذه المعاني. ولكن البدوي لم يكن قد أدرك بعدُ معنى هذا الصوت. فكأن رسول الله ﷺ قام بتفسير وتعليم معاني هذا الصوت الداخلي عنده بحديثه هذا. كان تأثير حديث الرسول ﷺ قويّاً في نفس البدوي الذي لم يجد بدّاً من إعلان إسلامه.

إن الحديث مع بساطته وخلوه من تكلف البلاغيين إلا أنه كان مطابقاً لحال البدوي وملائماً لمستواه ومالكاً عليه جوانب نفسه؛ فلم يجد البدوي بدّاً من الاستسلام.

هل غيرُ رسول الله ﷺ استطاع أن يحول أناساً قاسية قلوبهم إلى ملائكة

---

(١) **عام**: أي جدب ومجاعة وقحط. (المترجم)

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ٦٥/٤، ٦٤/٥؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٧٢/٨

رحيمة على مدار التاريخ كله؟ إنه استطاع باستخدام الطاقات الموهوبة له من قبل الله تعالى استخداماً حكيماً أن يحدث انقلابا عظيما وثورة عظمى لا يزال المؤرخون وعلماء الاجتماع يرون فيها لغزاً مستعصياً على التفسير. فالجواهر التي أودعها النبي ﷺ أودية الحياة الاجتماعية صنعت أمواجا متلاحقة وصلت حتى ساحل عصرنا الحالي، وسيستمر هذا إلى يوم القيامة بلا شك. فاليوم نرى أن هناك إقبالا على الإسلام في جميع أنحاء العالم؛ وليس هذا إلا نتيجة للأمواج التي أحدثها النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية والتي وصلت إلى ساحل عصرنا، وإلا فإلى من يُعْزَى إحداث هذه الجاذبية المقدسة وهذا التأثير الذي دام عصوراً عديدة إن لم يُعْزَ إلى النبي محمد ﷺ؟ وهل هناك إنسان آخر يمكن أن يكون صاحب هذا التأثير وهذه الجاذبية القوية؟ كلاَّ! أبداً، إنه هو الفرد الفريد في الكون وفي الزمان... نعم، كل شيء كان لوجهه الكريم.

٤) خطابه للأنصار في حُنين

مثلما كان سيد الأنبياء ﷺ يحل أعضل المسائل بكل سهولة ويسر، ويفك عقد أعقد المشاكل بأسرع وقت ودون أي تأخير؛ كان كذلك يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه أمام المشكلات والحوادث الفجائية، فيتعرض لتلك المشكلة ويجد لها الحل الملائم في أقصر وقت. فإن دققتَ كل حركة من حركاته وكل خطوة من خطواته، وكل جملة بل كل كلمة من كلماته وجدتَ أنها جميعاً حُسبت بحساب دقيق ووُزنت بميزان حساس جدا، وأنها كانت في موضعها المناسب وفي وقتها الملائم تماماً. فلو كان هناك أي خطإ في التوقيت، أو لو أ هملت أي جملة من كلامه لما كان في الإمكان تحقيق كل هذا النجاح وهذا التوفيق. علماً

بأن رسول الله ﷺ لم يطصنع حركاته هذه و لم يكن له الوقت الكافي للتفكير فيها طويلا. إذن، فكيف يفسر مثل هذه الحوادث إن لم يكن صاحب فطنة خارقة..؟ أجل، كان نبيا، وكان منطقه منطق الأنبياء... يفكر كنبي، ويتصرف كنبي فلا يعرف الفشلُ إليه سبيلاً. بل لا يعرف إلا النجاح في أعلى ذروته، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى ما وصل إليه أبدا. وهناك الكثير من الحوادث التي تبرهن على هذا ولقد اخترنا منها حادثة واحدة نظراً لأهميتها.

دارت معركة حُنين بعد فتح مكة، وقام الرسول ﷺ بتوزيع أكثر غنائمها على الأشخاص الذين أراد تأليف قلوبهم. وكان معظم هؤلاء من أشراف القوم ورؤساء القبائل ممن لهم كلمة مسموعة. وكان هذا أمراً ضرورياً لتأليف قلوب هؤلاء بعد فتح مكة لكي تستمر الفتوحات ولا يتوقف زخمها، لأن قسماً من هؤلاء أسلموا دون رغبة كافية. فإن لم تُطَيَّب قلوبهم وإن لم تتم إذابة الجليد فيها لكان من المحتمل أن يكون خطرهم أشد من خطرهم وهم في مرحلة الكفر فيُضروا بالإسلام ضرراً بالغاً ويكونوا خطراً عليه. ومن ثم فإن قيام الرسول ﷺ بخطوة تأليف قلوبهم كان نتيجة فطنته عليه الصلاة والسلام. كانت الغنائم المفروض تقسيمها آنذاك تبلغ ٦٠٠٠ أسير و٢٤٠٠٠ ناقة و ٤٠٠٠٠ من الماشية و ٤٠٠٠ أقة من الذهب والفضة.

وعند توزيع هذه الغنائم خص الرسول ﷺ أهل مكة بمعظمها وأعطى بعض الأشخاص عطايا كبيرة. وهؤلاء كانوا –كما قلنا– من الذين يريد الرسول ﷺ تأليف قلوبهم واستمالتها إلى الإسلام، وكان هذا شيئاً مفيداً وضروريا؛ فمثلاً أعطى آل أبي سفيان ٣٠٠ ناقة و١٢٠ أقة من الفضة، وأعطى حَكيم بن حِزَام

٣٠٠ ناقة ونصير بن حارث ١٠٠ ناقة، وقَيْس بن عَدِيّ ١٠٠ ناقة وصفوان بن أمية ١٠٠ ناقة وحويطب بن عبد العُزَّى ١٠٠ ناقة والأقرع بن حابِس ١٠٠ ناقة وعيينة بن حصن ١٠٠ بعير ومالك بن عوف ١٠٠ ناقة. وعدا هؤلاء خص بعض الرجال المهمين بـ(٤٠-٥٠) ناقة.[١]

كانت الغنائم المقسمة عبارة عن نوق أو ذهب أو فضة... ولكن الغاية كانت منحصرة في الذود عن الدين وتأليف القلوب وتقريبها للإسلام، ذلك لأن فتح مكة كان قريب العهد وكانت بعض قلوب أهل مكة منكسرة. لقد كانت كرامة مكة ومكانتها في نظر أهلها كل شيء ، لذا فقد قام رسول الله ﷺ باستغلال فرصة هذه الغنائم أفضل استغلال لجبر الخواطر ومداواة الجروح.

غير أن هذا التقسيم أثار حفيظة بعض الأنصار ولاسيما الشباب منهم حتى قال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. لقد كان هذا الكلام بداية لفتنة... لم يكن من المهم أن قائليه كانوا قِلَّة. فلو لم توقف هذه الفتنة لاتسعت وانتشرت كانتشار النار في الهشيم. كما أن أي اعتراض على النبي ﷺ يحبط عمل صاحبه ويجرده من دينه وإيمانه ويجعله من الخاسرين خسراناً أبديا، وهذه المصيبة لعمري أعظم من مصيبة الفتنة.

قام سعد بن عبادة على الفور بإخبار رسول الله ﷺ بالأمر. ومع أن قائلي هذا الكلام كانوا من الشباب، إذ لم يخطر شيء من ذلك على عقول المسنين، إلا أنه كان من الضروري إطفاء هذه الفتنة بسرعة وإلا اتسعت. أمر رسول الله

---

(١) «**كتاب المغازي**» للواقدي ٣/٩٩٣-٩٩٦؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٤١٣-٤١٤؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٥٩-٣٦٠

ﷺ أن يجتمع الأنصار في مكان وحدهم دون غيرهم... ثم خطب فيهم الرسول ﷺ الخطبة التالية.

«يا معشر الأنصار! مقالةٌ بلغتني عنكم وَجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم.»

هذه البداية بداية مذهلة من الناحية النفسية للحاضرين؛ ذلك لأن أحداً لم يكن يتوقع هذا الكلام، فمعظمهم لم يكن يعرف سبب الاجتماع، لذا كانت هذه الجملة بمثابة لطمة فجائية ثابت معها النفوس إلى رشدها. ولم يكن في وسع الصحابة حينئذ أن يعترضوا على رسول الله. كل ما هنالك أنه كان من الممكن حدوث غضاضة في بعض النفوس وكان بإمكان النبي ﷺ إزالتها.

أحدثت هذه الجملة الأولى لرسول الله ﷺ تأثيراً كبيراً في قلوب الذين شعروا من قبل بالغضاضة، إذ لَمُّوا شتات نفوسهم واتجهت عيونهم إلى الرسول ﷺ، فلا ريب أن ما سيقوله بعد ذلك بالغ الأهمية. كان على رسول الله ﷺ أن يديم هذا الزخم حتى يصل إلى النتيجة المرجوة، فقال ﷺ: «ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟»

فقال الأنصار: بلى يا رسول الله... اَلْمَنُّ لله ورسوله.

عند ذلك حوَّل رسول الله ﷺ دفة الحديث. فبعد أن ثارت المشاعر وهاجت العواطف بدأ رسول الله ﷺ يتكلم باسم الأنصار ويقول بما كان يمكن أن يقوله الأنصار في أسوإ الظروف، علماً بأن أيّ مسلم لو قال مثل هذا الكلام لنبيه لحبط عمله.

استمر رسول الله ﷺ في خطابه فقال:

«ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنّ لله ورسوله. قال: «والله لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فأمّنّاك، ومخذولاً فنصرناك»

فقالوا: الْمَنُّ لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ:

«أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعَة[1] من الدنيا تألّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رِحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار. اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.»

فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربّاً ورسوله قِسْماً. ثم انصرف وتفرقوا.[2]

هذه الخطبة القصيرة المركزة أطفأت فتنة كادت تقع، وكسبت قلوب الأنصار مرة أخرى، ولا أظن أنه يمكن إيضاح هذا الموقف إلا بالرجوع إلى صفة "الفطنة" مرة أخرى.

---

(١) **لعاعة**: البقية اليسيرة من الشيء.

(٢) **مسلم**، الزكاة، ١٣٢-١٤١؛ **البخاري**، مناقب الأنصار، ١-٢، المغازي، ٥٦؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٤١١

فلتقوموا الآن بتحليل هذا الخطاب جملة جملة وكلمة كلمة، وضعوا التوقيت في نظر الاعتبار، ثم قوموا بقياس المسافة التي قطعتها أرواح الصحابة ونفوسهم اعتباراً من الجملة الأولى وانتهاء بالجملة الأخيرة. وضعوا أيديكم على ضمائركم وقولوا بالله أيستطيع أحد -غير رسول الله محمد ﷺ- القيام بإلقاء مثل هذا الخطاب الرائع بصورة ارتجالية ودون تفكير مسبق أو تحضير مسبق؟ إن صاحب كل ضمير حي يسمع الجواب نفسه في أعماق وجدانه بشرط أن يطالع الأمور ويحللها بصورة حيادية وموضوعية وألاّ يكون معانداً أو صاحب حكم مسبق.

ولنحلل سويا هذا الخطاب بشكل موجز، ولندع التحليل التفصيلي له لعلماء النفس وعلماء الاجتماع في المستقبل، لكي يفسروا جانبا آخر من جوانب الفطنة النبوية على ضوء علمي النفس والاجتماع.

أولاً: كان هذا الخطاب موجهاً للأنصار فقط، ذلك لأنه لم يكن للمهاجرين ولا لأهل مكة أي دور أو ضلع في هذه الحادثة التي استوجبت هذا الخطاب. فلم يكن هذا الخطاب ليجذب انتباههم أو يعنيهم في شيء. لذا، فوجودهم بين المستمعين كان سيَحُول دون حصول التركيز المطلوب للاهتمام لدى الأنصار، علماً أن هذا التركيز كان مهماً آنذاك.

ثانياً: أن السماح للأنصار فقط بحضور ذلك الاجتماع أرضاهم نفسياً وجعلهم يشعرون بالفخر وبالمباهاة، فانفرادهم في اجتماع مع رسول الله ﷺ كان له تأثير نفسي إيجابي عليهم.

ثالثاً: كان من الممكن أن يكون في الخطاب ما يمس -ولو قليلاً- مشاعر أهل مكة أو مشاعر المهاجرين مثل تعبير: «أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير.»

رابعاً: في ختام الخطاب كان هناك مدح خاص للأنصار ودعاء لهم. وكان من الممكن أن يجد المهاجرون –وهم الذين تركوا أموالهم وديارهم في سبيل الله– غضاضة من عدم اشتراكهم مع الأنصار في مثل هذا المدح وهذا الدعاء.

خامساً: هذا الخطاب خطاب رائع من ناحية الفصاحة والبلاغة، أي خطاب رائع إن نظرنا إليه من زاوية الأدب والبلاغة فحسب.

سادساً: في بداية الخطاب كانت هناك هزة لمشاعر المستعمين، ثم ترضية لنفوسهم وتسكين لها. وعندما تكلم باسمهم جعلهم في موقف المستمع والمنصت فقط وهذا شيء رائع.

سابعاً: إن أسلوب الخطاب الذي كان ينضح بالإخلاص الكامل والصدق الخالص والتجرد السامي، والخالي من اللعب بالكلمات أو التزويق المصطنع لم يبق للمستمعين قول أي شيء آخر. وهذا شيء مهم جداً من ناحية الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

ثامناً: إن إلقاء الخطاب بشكل ارتجالي ودون تفكير مسبق أو تهيئة مسبقة زاد من التأثير الإيجابي له.

هذه الأمور وأمور أخرى أيضاً قد تخطر على البال ترينا أن رسول الله ﷺ لم يكن يحل المشاكل والمصاعب تبعا لهواه الشخصي، بل كان الوحي والإلهام والفطنة المهداة له من رب العالمين.

ب– **نبينا ﷺ وجوامع الكلم**

البُعْد الآخر لفطنة رسولنا ﷺ هو أنه أوتي جوامع الكلم.

أجل، لقد كان سيد البلغاء. وكيف لا وقد اختاره الله ترجماناً لكلامه ولكلماته. لقد أبدع الكثيرون حتى الآن الكثير من أروع الكلام وأبلغه وأجمله، كل حسب درجته وموهبته، ولكن هناك عمق آخر ولذة أخرى وحلاوة أخرى في كلام سيد البلغاء ﷺ.

ولقد كان بيانه عذبا، وتعابيره ساحرة تدير الرؤوس وتخلب الألباب وتخفق لها القلوب حتى لتكاد تقف، وتستسلم له العقول، وتحيا به المشاعر الإنسانية وتنمو، وتعلو الأرواح به وتسمو وترفرف. لقد وهبه الله تعالى قدرة بيان جعلت مستمعيه المحظوظين يستمعون إلى بيانه الجامع الآسر للقلوب وكأن على رؤوسهم الطير، تغمرهم مهابته فينصتون له وقد انعقدت ألسنتهم وسحرت نفوسهم. عندما يتكلم ويسرد جواهر الحكم لا يملك أرباب العقول إلا الإنصات إليه. وعندما يصف الخير والجمال والصدق يأسر بحديثه العذب الخلاب الأرواح. وعندما يهاجم الشر والفساد بكلماته النارية يُغرِق الكفر والمنكر في مستنقعه ذاته. أما عندما يزأر ببراهين دعوته ورسالته يفرِّق خفافيش الظلام ويخرس أصحابَ الأرواح المظلمة.

كان ﷺ يدرك أهمية ما خصه الله من ألطاف ونعم إدراكاً واعياً. فكان لا يرى بأسا من إعلانها تحديثاً بنعم الله عليه لذا، نراه يقول: «أنا محمد النبي الأمي.»

«أُوتيتُ فواتح الكَلِم وجوامعه وخواتمه.»[1]

«إنما بُعثت فاتحاً وخاتماً وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه.»[1]

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٥٠، ٤١٢؛ «**كنز العمال**» للهندي ١١/٤١٢

كان ببيانه الذي يشع نوراً وضياء يعلن أنه سيد خطباء الأولين والآخرين.

كان سيد الأنبياء ﷺ بأنفاسه التي تحيي النفوس بلبلاً يشدو في روضة الحق... كلما شدا عبَّر عما في قلبه فتنساب الألحان الإلهية الساحرة من فمه... كلماته الرقيقة الشبيهة بأكمام الورود النضرة وزهوره المتفتحة على أنداء الصباح لم تكن تشبه زهور الآخرين. كانت كل كلمة له على مائدة أقواله نضرة يانعة وجديدة وطرية طراوة قطرة الندى. ولم تتيسر نعمة تذوق بيانه الساحر الأخاذ وفهم معانيه إلا لمن سعد بحضور مجلسه من المحظوظين الأوائل.

لقد حد سيد الفصحاء من جوهر الكلام سيفاً صقيلاً قام -بمجرد رسمه حلزوناً فوق الرؤوس- بمطاردة كل خفافيش البيان الكاذب والمزخرف، وفرت كل الأكاذيب إلى أقصى بلاد العنقاء.

وأسال من أودية البيان ينابيع وعيوناً حَوَّلت صحارى الجاهلية إلى رياض زاهرة، وشلالات هادرة بحيث وجد كل أصحاب القلوب المنفتحة على الإيمان أنفسهم في بحار هذه العيون المتدفقة نحو محيطات الأبدية والأزلية.

كانت كلماته نابعة من وراء الغيب... ولولا كلماته المضيئة بنور الوحي لبقيت العوالم في فوضى واضطراب وعماء. لقد أزال بسيف بيانه الستار عن وجه الطبيعة وزيَّن كتاب الشريعة بنقوش أقواله. الكلام عنده كان بمثابة متاع الفارس، والسهم ذي الريش الذهبي في جعبته. ما زار مكاناً إلا وملأ بالجواهر حجر من يفهم الكلام حق الفهم، وشد قوسه وهاجم بفرسه مواضع الظلام.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ١٢٢؛ **مسلم**، المساجد، ٦؛ وانظر: «**كنز العمال**» للهندي ٤٢٥/١١

وعندما شاء الله أن يرسي –وللمرة الأخيرة– قواعد دولة بكلامه جاء بسيد البلغاء ليقوم بهذه الوظيفة وأعطاه ختمه وسكته.

كان كل فرسان الكلام منذ فجر التاريخ ممن تطلعوا إلى ماوراء أستار هذا العالم بمثابة أفراد كورس غنائي في تمجيد الله تعالى... أما هو ﷺ فكان بمثابة قائد هذا الأوركسترا... وبمثابة رئيس الذاكرين في الحلقة القدسية بالأولياء والأصفياء... جاء فدوّى صوته في أرجاء الدنيا وترددت أصداؤه في جنبات العالم فهزته هزاً عنيفاً.

كانت كل ثمرة من الثمار المتزينة بكلماته والتي قدمها للإنسانية من المائدة السماوية مجنية ومهداة له من حديقة حبيبه وخالقه. ومن أكثر جوانب هذه الحديقة خصوصية وسرية وقدسية والتي لم يطلع عليها أحد من قبل، بل قُدِّمتْ له من مولاه كهدية خاصة، إذ لم ير هذه الثمار و لم يقربها و لم يلمسها أحد من قبل.

وعندما كان يجيش قلب هذا العندليب صاحب المكانة السامية ويغمره الوجد والهيام يبدأ بالشدو بأرقّ الألحان وبالغناء بأرق النغمات بأزهار تلك الحديقة الخاصة المقدسة... هنا كانت الألسن الأخرى تصمت... والأرواح تنصت... والقلوب تهيم... والنفوس تذهل أمام قطرات معاني كلماته البليغة الساحرة.

أجل، إن كلماته تشبه البحار التي تنثر اللآلئ على السواحل بأمواجها أو بالشلالات المنهمرة من الآعالي أو بالعيون الفوارة من الأعماق الآخذة بمجامع القلوب... فلا نستطيع قياس غنى أعماق هذه البحار ولا محتوياتها ولا ترجمة هذه الشلالات ولا بلوغ الذُّرَى التي تبلغها هذه العيون الفوارة أو الإحاطة بها.

لقد صرف المئات من الأدباء والمحققين أعمارهم في تدقيق جواهر كلامه

والطواف حولها... وتوجه آلاف وآلاف من المفكرين إلى نبع الحياة هذا، وأفنى الكثير من الدهاة حياتهم في الغوص إلى أعماق معاني كلامه... ولكن معاني كلماته بقيت وراء أي نقطة تم الوصول إليها.

أجل، فكما لا تستطيع القطرة الواحدة تمثيل البحر بأكمله، وكما لا تستطيع الذرة الواحدة التعبير الكامل عن خصائص الشمس، لا يستطيع العلماء ولا الأولياء ولا الأصفياء الذين يمثلون جزءاً من الحقيقة المحمدية مهما كانوا كاملي الصفات بالنسبة للناس الآخرين أن يمثلوه التمثيل الكامل، ولا أن يعكسوا صورته بأكملها.

إن رسول الله ﷺ رغم أميته وعدم دراسته في المدارس مرشد كامل، بسبب متانة بنيته المادية والمعنوية وصفاء أحاسيسه ورصانة تفكيره وقلبه الواسع المنفتح والمتوجه نحو المعالي؛ فاستطاع بذلك تسلم الرسالة الإلهية كما هي، وحافظ عليها كما هي، وأبلغها للناس كما هي... فقد كانت فطرته وخلقته ميسَّرة لتنفيذ هذه المهمة، إذ تمت المحافظة على صفاء روحه وصانه الله من أي تأثير سلبي للتربية أو المعرفة البشرية ثم زينه بالوحي وأرسله للناس... هذا هو معنى النبي الأمي والمرشد الكامل الذي لم ير مدرسة و لم يتعلم من الناس.

لقد كانت طبيعته وسجيته وأحاسيسه الظاهرة والباطنة وعقله ومنطقه مهيئاً وصالحاً للقيام بوظيفة النبوة ومهامّها، حيث قام بنقل الوحي حتى أصغر تفاصيله ودقائقه دون تعريضه لأي تبديل أو تغيير، بل ينقل الوحي الإلهي للناس كما ينقل المنشورُ الضوءَ المارّ من خلاله لكي يكون ملائماً لعقول البشر.

هذه الرسالة الإلهية النابعة من أطهر مكان والمتدفقة إلى أطهر قلب بُلّغت

للناس بألطف لسان وأفصحه وأنـــزهه حسب قدرة العقل البشري واستيعابه. وكما أنها أمارة من أمارات النبوة وإشارة إليها فإنها في الوقت نفسه دليل مـــن أدلتها، وحجة من الحجج الدامغة وزادُه أثناء قطعه لتلك المفـــاوز الموحـــشة والطرق الوعرة وبُراقُه[1] فيها.

وعندما كان يقدم للناس رسائل ربه كان يصرح في الوقت نفسه بنبوتـــه ويعلن رسالته؛ وكذلك عندما كان يستعمل جواهر خزائن الوحي وأســـراره الإلهية الساحرة في حل معضلات ومشاكل محدِّثيه وأصحابه، كان يـــستعمل الوحي الإلهي نفسه كسيف ماسي في إلزام خصومه وإفحامهم وإسكاتهم.

كان القرآن بالنسبة إليه كل شيء... كالهواء والماء... سلاحاً ودرعـــاً... حصناً وقلعة... وراية ترفرف فوق هذه القلعة... كان يتنفس بالقرآن، ويعلو به كالسحاب إلى الأعالي... يسرع به لنجدة الملهوف المحتاج مثلمـــا تـــسرع قطرات الرحمة لري عطش المخلوقات وظمئها... ينافح به الظلام ويلوذ به من شرور الأشرار... يصول به ويجول، ويكون نوراً ينتشر في الآفاق.

علماً بأن سيد البلغاء، وسلطان الفصحاء وممثل الحكمة إضافة إلى كنـــــز العلم الإلهي الذي لا ينفد كان كثيراً ما يوجه إليه العديد من الأسئلة، وكـــان هناك العديد من المسائل والمـــشاكل والمعـــضلات الاجتماعيـــة والـــسياسية والاقتصادية التي كانت تنتظر الحل والأجوبة الشافية من لدن رســـول الله ﷺ. فكان ﷺ يقوم بإيفاء حق وظيفته النبوية هذه لأن القلب المحمدي الصافي كان المرآة المجلوة لعكس العلم اللانهائي، ومركزه ومنـــــزله ومهبطـــه وحديقتـــه

(١) **البراق**: المركب الذي ركبه الرسول ﷺ في أثناء إسرائه ومعراجه. (المترجم)

وبستانه. فكان يقوم بشرح القرآن الكريم فيقيد المطلق، أو يطلق المقيد، أو يخصص العام، أو يعمم الخاص، وذلك باستعمال أسلوبه الخاص وبيانه الفصيح علاوة إلى تبليغ رسالة القرآن. فهذه هي مهمة الرسول المبعوث إلى الناس كافة. وما كان بإمكان أي مصلح ومجدد ومرشد للإنسانية جمعاء ومبلِّغ للناس أجمعين إلا أن يكون هكذا.

في العهد الذي شُرِّف فيه النبي ﷺ بشرف النبوة كانت الفصاحة والبلاغة أروج شيء في سوق الجاهلية. فقد كانت هذه الأمة –التي حكمت فيما بعد العالم بذكائها ودرايتها– أمة أديبة. لذا، فقد سحرها ما سمعته من الرسول ﷺ من تلاوة للقرآن الكريم أو من حديث أو خطاب، واستمعت إليه مذهولة مفتونة به ومعجبة بما تسمعه منه. أما هو ﷺ فقد فرض نفسه عليهم في كل فرصة، ولم يجد أعداؤه ما يَصِمونه به أو ما ينتقدونه به. ولو فعلوا هذا أيْ لو قاموا بتقديم أقل اعتراض أو نقد لما تأخر خصومه الموجودون حاليّاً من تناول ذلك الأمر وتضخيمه وتكبيره وإيصال ذلك إلى كل شخص وإلى جميع أنحاء العالم من أجل إزالة محبته من النفوس. وأمثال هؤلاء لا يتورعون عن تلفيق أحقر الاتهامات وأرذل الافتراءات حوله. ولكنهم مع تفتيشهم هذا لا يجدون شيئاً ضده. وأمام بيان رسول الله ﷺ وفصاحته وقوة تعبيره لم يستطيعوا أن يقولوا له حتى ما قاله فرعون لسيدنا موسى عليه السلام.[1]

إن صوت من قال: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي» يهدر من فوق ذروة سامقة

(١) يشير الى خطاب فرعون لموسى عليه السلام : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢).

بشكل لا يملك معه الأصدقاء والخصوم سوى الشعور بالاحترام والإعجاب والتوقير له ولبيانه المملوء فصاحة وبلاغة.

كان من بين أصحابه الكرام العديدُ من أصحاب البلاغة أمثال لبيد، والخنساء، وكعب بن مالك وحَسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، والكثير من الخطباء أمثال أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والعديد من الفقهاء وأصحاب الحكم... كل هؤلاء قبلوا به مرشداً وأستاذاً وهادياً لهم في كل مسألة وفي كل موضوع.

أما الذين جاءوا من بعده من كبار حفاظ الحديث وشراحه ومن عباقرة مفسري القرآن ومدققيه، ومن أعلام أئمة الفقه والمجتهدين والمجددين الذين سبقوا عصورهم، وآلاف الأولياء العظام والأصفياء والأبرار والمقربين من الذين كان لهم قصب السبق في عالم الأرواح وعلماء الكلام والمنطق، والعديد من العلماء الآخرين في كل فن وعلم، فقد رأوا في أحاديثه وكلامه مرجعاً أميناً وفياضاً صافياً دفاقاً لا يجف ولا ينتهي ولا ينفد، فراجعوه ولجأوا إليه ليشبعوا ظمأهم منه ويطفئوا جوعهم من هذه المائدة الربانية.

أجل، لقد كانت سُنَّته من الأمس حتى اليوم منبع المجتهدين الذي لا يضل وباب العلم الفسيح، والجناح القوي للسابحين في سماء المعرفة والنبع الصافي الرقراق لإلهامات الأولياء والأصفياء. فخلاصة علوم الشريعة، وكل طرق الصوفية وكل العلوم الكونية وأسرار القلب والوجدان نابعة من النبع الصافي لجواهر كلامه النوراني.

لقد بَيَّن بياناً واضحاً كثيراً من المواضيع اعتباراً من بدء الخليقة وخلق

الإنسان وانتهاءً إلى يوم القيامة، يوم يساق المرء إما إلى الجنة أو إلى الجحيم... وتحدث عن القلوب المتفتحة للمعارف الربانية، وعن مشاهدتهم جمال الله في الآخرة... عن الإيمان والعقائد... عن أدق تفاصيل العبادات... تحدث في مواضيع عديدة، واستعمل في كل موضوع اللسان المناسب والبيان المناسب إلى درجة أننا إذا استثنينا القرآن فلن نجد بياناً مثل بيانه ولا فصاحة مثل فصاحته.

تكلم عن الله: ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بما يناسب هذه المواضيع الحساسة من دقة وتوازن، وعن القيامة والحشر والنشر وعن يوم الحساب وعن الجنة والجحيم فأعطى الأمل الممزوج بالخشية والرهبة المنقلبة إلى سعادة، وعن الملائكة والروح والجن والشياطين وعن أسرار الغيب الأخرى فكأنك تنظر إليها من وراء زجاج بلوري مضبب؛ وتحدث عن الإيمان وعن العمل، وعن الإخلاص في العمل وعن قابلية البذرة للنمو وقابلية التربة للإنبات وعن الحياة التي يهديها المطر وعن جمال الربيع الزاهر والزاخر بالألوان والعطور؛ فكأنك ترى أمامك لوحة مرسومة بريشة فنان عظيم... لوحة تعلم عندما تتأملها كيف تسمو بالإيمان فطرة الإنسان النظيف وكيف تتوسع وتنمو هذه الفطرة بالإسلام، وكيف تنقلب بالإخلاص إلى شجرة طوبى تظلل ما حولها.

تَعْلَم من بيانه أن الصلاة صديق مرافق للإنسان في جلوسه وقيامه، تطرد عنه وحدته وتنير دربه... وأن الوضوء شيء يجري في عروق الإنسان مجرى الروح والدم... نهر أمام بيته يغسله من كل درن. أما الأذان والإقامة فشجرة باسقة... وهدير رعد قاصف يفزع الشياطين ويلقي في قلوبهم الرعب... أما للمؤمنين فروح وريحان يلف أرواح الذاهبين إلى الصلاة.

الزكاة والصدقة كقنطرة توصل بين الجماعات المتشتتة والمتقطعة الروابط، وكمادة تلتحم بها القطع المتكسرة فتصبح قطعة واحدة.

الصيام جنة يحفظ صاحبه فيكون باباً سريّاً في أسوار الجنة يساعده في الولوج إلى الجنة. ويكون لصاحبه ساقياً يقدم له شراب الكوثر.

الحج مثل خَيّاط يرتق الرتوق... ومثل غاسل يزيل البقع والأوساخ... ومثل مجلس كبير للشورى يجمع الناس على صعيد واحد.

الجهاد مثل فدائي منتصب القامة سد الطرق المؤدية إلى جهنم ومثل موظف استقبال يفتح لك أبواب الجنة ويقول لك مرحّباً: تفضل بالدخول. ومثل أب رحيم يقيِّد أيدي المعاندين ويسوقهم إلى أبواب الفردوس. أما الذِكْر والدعاء عنده فمثل هاتف لاسلكي يقيم رابطة وعلاقة وحواراً بين المخلوق وخالقه. أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثل موظف ينظم السير... مثل بواب أو حارس واقف على مفترق الطرق وعلى الأبواب ينظم المرور في الطرق أو الدخول من الأبواب.

أما صلة الرحم فمثل أم فتحت حضنها تنتظر، وتتحاسب مع الإنسانية وتتحدث معها وتقف منها موقف المدعي العام، وتبذل لها الوعود، وتمسك بتلابيبها لتحذرها من الانحراف... أي تتشكل هنا لوحة من الموزائيك الحي الرائع تسحر القلوب.

أجل، إن قيامه بشرح كل هذه الأمور وتصويرها تصويراً فنيّاً موضوع يحتاج إيضاحه إلى كتابة مجلدات في كيفية قيامه بذلك، والمواد الأولية التي

استعملها في تصويره وفي نقشه وفي زينته، وطراز حركته وأدائه وقوة تصويره وقدرته البلاغية والموسيقية، كل ذلك دون تصنع ولا تكلف.

إذن، فلندع الشرح الدقيق والعميق لمثل هذه المواضيع المختلفة إلى أربابها والمتخصصين فيها، ولنتناول هنا بعض أحاديثه المباركة التي يعلمها الجميع لكي نشير إلى معانيها العميقة وقوة بيانها ورصانتها.

(١) تحليل باقة من الأحاديث

إن أبرز صفة في كلام نبينا ﷺ هو أنه أوجز كلام قيل في موضوعه، وهناك آلاف الأمثلة الممكن إبرازها في هذا المجال، ولا يسعنا هنا إلا إيراد بعض هذه الأمثلة التي يمكن إيرادها في كل عصر كأنموذج على "جوامع الكلم". ولا ننسى هنا أن نذكر ونكرر بأن كل أحاديث الرسول ﷺ بهذه الصفة.

أ. بضع كلمات هي ذروة التوحيد

يورد الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ:

«يا غلام! إني أعلِّمك كلمات: احْفظ الله يَحْفظْك. احْفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يَضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُّحُف.»[1]

---

(١) **الترمذي**، القيامة، ٥٩

إنه بهذه الجمل الموجزة الفياضة بالمعاني استطاع أن يشرح أعقد مواضيع القدر وتسليم الأمور لله في أسلوب سهل وبسيط. كما أوضح بكلماته القليلة معنى العبادة في مجال الدعوة والحركة.

بـ. الإنسان شخص مسافر

يروى عن ابن عمر ﷺ الحديث التالي:

«كُنْ في الدنيا كأنكَ غريب أو عابرُ سبيل وَعُدّ نفسَك في أهل القبور.»[1]

إن هذه الجمل الثلاث أوجز كلام في موضوع الزهد والتقوى وفي حفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وأكثرها ثراء بالمعنى. ولوكانت هناك جملة أوجز من هذه فلا بد أن يكون هو صاحبها أيضاً.

إن الإنسان غريب في هذه الدنيا، فهو -حسب تعبير جلال الدين الرومي- ناي مقطوع من غابة القصب، ولأنه أبعد عن صاحبه الحقيقي، فإنه في أنين دائم طوال الحياة. الإنسان شخص مسافر... بدأ بسفره من عالم الأرواح إلى رحم الأم ثم إلى الدنيا فمرحلة الطفولة ثم الشباب فالشيخوخة فالقبر ومنه إما إلى الجنة أو إلى النار... ولكن يا ترى أيعي الإنسان أنه مسافر..؟

لو كان واعياً ومتذكراً على الدوام أنه مسافر لما تعثر في طريق الحياة ولما تهالك على لذائذ الدنيا التي لا تساوي شروى نقير، بل لسار في طريقه بقدم ثابتة مطمئنة. نعم، إن لم يَعُدّ الإنسان نفسه مَن أصحاب القبور، أي بتعبير القدماء "موتوا قبل أن تموتوا"،[2] ولم يمزج حياته بهذه الحقيقة السامية لا

(١) **البخاري**، الرقاق، ٣؛ **الترمذي**، الزهد، ٢٥؛ **ابن ماجه**، الزهد، ٣

(٢) انظر: «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٢٩١/٢

يستطيع أن يتخلص من دسائس الشيطان وحيله أبداً. أجل، يجب على الإنسان أن يموت من ناحية النفس الأمّارة بالسوء ومن ناحية شهوات الجسد حتى يحيا من الجانب الروحي.

أليس الذين يرون الحياة عبارة عن النفس وشهواتها فقط مساكين انسحقوا تحت أثقال الجسد؟

ج. عاقبة الصدق والكذب

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي:

«عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يَهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يَصْدُق ويَتَحرَّى الصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقاً. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يَهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يَكذِب ويَتَحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّاباً.»[1]

الصدق شعار الأنبياء، والكذب شعار الكفار والمنافقين. الصدق أساس مهم يحتضن الحاضر والمستقبل، والكذب لطخة سوداء على جبين الزمن. ليس هناك فرد واحد عاش سعيداً ووصل إلى السعادة الأبدية في ظل الكذب أبداً. وليس هناك فرد واحد مشى في طريق الصدق المنير وباتجاه السعادة الأبدية فأصابه نكد الحظ وشقي في الدنيا وفي الآخرة.

الكذب من أبرز أسس الكفر ومن أوضح علامات النفاق، وهو ادعاء مخالف لعلم الله تعالى. لقد خرّب الكذب كل شيء في أيامنا الحالية... خرب

---

(١) **البخاري**، الأدب، ٦٩؛ **مسلم**، البر، ١٠٥؛ **أبو داود**، الأدب، ٨٠

الناس وجعل الدنيا داراً ومسكناً للكذابين. إنه علة اجتماعية خطيرة ومفزعة إلى درجة أنك لو أعطيته حق الحياة وفتحت له أبواب الوطن والبيت والسوق والبرلمان والمعسكر، وأعطيته حرية التجول فيها لخابت الأمة وما أفلحت أبداً.

وعلى النقيض من هذا فإن الصدق أهم أسس الإسلام وأبرز صفة في الْخُلُق المحمدي وحجره الأساس والصفة المميزة للأنبياء وللأولياء والمحور الأساس للرقي المادي والمعنوي. الصدق صفة الملائكة والكذب صفة الشياطين. الأول صفة العبيد المكرمين عند الله، والآخر صفة الأرواح الخبيثة. الأول صفة فخر الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات والآخر صفة الدجالين.

وكلمة "البرّ" تعني جماع الخير، وهي كلمة شاملة تعني صدق التفكير وصدق الحديث وصدق النية وصدق السلوك وصدق العيش... أي يمكن جمع الكثير من صور الخير تحت عنوانه وإرجاعها إليه.

أما كلمة "الفجور" فعلى عكس الكلمة الأولى تعني جماع الشر، ولأنها ضد كل صفات الخير والصلاح فهذا يعني أنها تعني كل الأفكار المنحرفة وكل الكلام المنحرف والسلوك المنحرف، فكأنها بذرة جهنمية.

وفي الحديث مقابلة بين "الصِّدِّيق" و"الكذاب". ففي الأول نرى الصدق وقد أصبح طبيعة وفطرة لديه فأصبح مثالاً للصدق. أما الثاني فقد عجن الكذب في طبيعته فأصبح من الكذابين المحترفين.

وقد استعملت صيغة المبالغة عند وصف كلتا الصفتين، فالذي نذر نفسه للصدق يكون رمزاً لصدق التفكير وصدق الحديث وصدق السلوك في الدنيا وفي الآخرة ورمزاً للقرب من الله، إن لم يكن اليوم فغدا. أما الذي ترك نفسه

للكذب، فسيكون رمزاً لكذب التفكير وكذب الحديث وكـــذب الـــسلوك في الدنيا وفي الآخرة، إن لم يكن الآن فغداً.

وهذان الطريقان أحدهما طويل والآخر قصير، أحدهما نير والآخر مضبب، أحدهما خطير والآخر أمين... هذان الطريقان لابد أن ينتهي أحدهما إلى الجنة والآخر إلى الجحيم. في كل محطة من محطات الطريق الأول هنـــاك مكافـــآت وجوائز لصاحبه ثم ينتهي الطريق إلى الجنة. وفي الطريق الثاني الخيبة والسوء ثم ينتهي الطريق إلى جهنم وإلى الخسران الأبدي.

كنا قد ذكرنا هذا الحديث في موضوع صدق رسولنا ﷺ. غير أننا نريد أن نقف هنا على نتائج الصدق في الدنيا وفي الآخرة، وعلى أضرار الكذب علـــى مستوى الفرد وعلى مستوى الحياة الاجتماعية، وكيف أن الحـــديث النبـــوي استطاع أن يغطي كل هذه المعاني في جمل قصيرة ومركزة.

أجل، إن المدقق لهذا الحديث فقط يدرك ويتأكد تماماً بأن جَمْع كل هـــذه المعاني الطويلة والمفصلة في مثل هذه الجمل القليلة والقصيرة وإظهار هذه المعاني بهذه الطريقة الساحرة للنفوس ليس إلا ميزة خاصة برسول الله ﷺ. فما مـــن أحد غيره يستطيع ذلك.

د. المرء مع من أحب

يروي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي: «المرء مع من أحب.»[1]

---

(١) **البخاري**، الأدب، ٩٦؛ **مسلم**، البر، ١٦٥

إن شرح وإيضاح معاني هذا الحديث يتطلب مجلداً كاملاً على الأقل. فالمرء الذي تعثر وظل في منتصف الطريق... الذي لم يستطع السير تماماً وراء مرشده... الذي لم يستطع إنجاز ما كان يحب أن ينجزه... هذا الحديث هو بمثابة قدح كوثر لمثل هؤلاء المنكسرة قلوبهم. هذا الحديث يوضح أن الإنسان -سواء أكان في جانب الخير أم في جانب الشر- سيكون مع من أحب، فالإنسان هنا أو هناك يكون دائماً مع من يحب. فمن كان يريد أن يكون مع الأنبياء والصديقين والشهداء عليه أولاً أن يحبهم وبتعبير آخر فإن الذين يكونون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين والشهداء هم أولئك الأشخاص الذين كانوا يحبونهم في الدنيا. كما يسري معنى الحديث فيشمل الذين يمثلون الشر والفساد أيضاً؛ ومن ثم فإن الحديث المكون من جملة واحدة فقط يشمل كل هذه المعاني ومعاني أخرى كثيرة وبكل هذا الإيجاز الشديد. وليس هذا في وسع أحد إلا من كانت فطنته مفتوحة للإلهام الرباني والوحي الإلهي.

لقد كان نُعَيْمان يشرب الخمر أحيانا، وكان الرسول ﷺ يطبق عليه الحد الشرعي. نعم لقد كان ما يقترفه ذنبا، ولكن لـمّا تلفظ أحد الصحابة بكلمة توبيخ في حقه وسمع هذا رسول الله ﷺ قطّب حاجبيه وقال: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله» [1] أي موصول القلب بحبهما.

فلمّا كان حب الله ورسوله يثمر المعية، فلا يليق أن يساء إلى المحب وإن زل. لأن قلبه يخفق بحب الله ورسوله. وهذا الحب يكفي لكي يحظى بشرف

(١) **البخاري**، الحدود، ٤-٥؛ **أبو داود**، الحدود، ٣٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٩٨-٢٩٩

المعية، بشرط أن يؤدي الفرائض ويتجنب الكبائر كحد أدنى. لأن المرء مع من أحب.

هـ. **التقوى**

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل ﷺ الحديث التالي:

«اتّقِ اللهَ حيثما كنتَ وَأَتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالِق الناس بخُلق حَسن.»[1]

ليس هناك شيء آخر مثل الخلق الحسن يرفع الإنسان. فالخلق الحسن هو خُلق الله، والخلق الحسن هو التخلق بخلق الله تعالى.

فنحن أمام حديث يشرح التقوى وكيفية المحافظة عليها وهو موضوع يمكن أن يكتب في حقه المجلدات. ونظراً لأن هدفنا هو إعطاء بعض الأمثلة، فإننا لن نشرح هنا هذه الحقائق السامية المتعلقة بالتقوى.

و. **كما تكونوا يُوَلَّى عليكم**

في حديث آخر يقول رسولنا ﷺ: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم.»[2] حسب نوعيتكم يكون نوع رؤسائكم، ومن أي نبع كنتم فرؤساؤكم محصول هذا النبع. هذا كلام يمكن أن تصنف فيه مجلدات وخاصة في موضوع الإدارة. وإذا سمحتم لي فسنتناول هذا الموضوع قليلاً بالشرح طبقا لحديث: «كلكم راعٍ

(١) **الترمذي**، البر، ٥٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٥٣/٥

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ٨٩/٦

وكلكم مسؤولٌ عن رعيته.»[1] فلكل واحد حدود لمسؤوليته... ويستمر هذا حتى نصل إلى رئيس الدولة الذي تشمل مسؤوليته كل البلد الذي هو على رأسه. غير أن حديث «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم» يكسب هذا الموضوع بُعدا آخر من زاوية القانون الاجتماعي.

أولاً: يقول الحديث منذ البداية للمواطنين إنكم في غاية الأهمية، لأن الذين سيحكمونكم لا بد أن يطرقوا بابكم ويكونوا في حاجة إليكم مهما كان الطريق الذي سيسلكونه في هذا، أي أنتم الذين تقومون برسم الطريق أمامهم.

إن لعلم الاجتماع قوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل، فكما توجد لعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك قوانينها الفطرية (أو شريعتها الفطرية) ومبادؤها التي لا تتغير، كذلك توجد لعلم الاجتماع قوانينه ومبادئه التي لا تتغير إلى يوم القيامة. فإذا رأينا الناس يسمحون بتواجد الشر ونموه فما ذلك إلا لأنهم سمحوا لهذا الشر أن يستوطن قلوبهم وصدورهم، فكان من الطبيعي أن يداروا ويحكموا بوساطة الأشرار... لأن هذا ناموس إلهي لا يتغير.

أجل، لنتساءل: هل يعيش الشر في نفوس الناس وهل يجد فيها تربة صالحة للنمو والانتشار؟ وهل ينبت الفساد في هذه النفوس؟ إن كان الجواب "نعم" فإن الله تعالى سيأتي لهؤلاء بحكام من نفس طينتهم، ليقوموا بإدارة هؤلاء الناس وحكمهم.

ثانياً: يقول هذا الحديث أيضاً إن القوانين والأنظمة ما هي إلا مدونات في

---

(١) **البخاري**، الجمعة، ١١؛ **مسلم**، الإمارة، ٢٠

السطور، وليس لها تأثير كبير، فلو اجتمع الناس وتعاونوا ليكتبوا أفضل القوانين فليس هذا مهمّاً، بل المهم هو مدى تطبيق هذه القوانين؛ لأن أخلاق هؤلاء الناس هي المعيار الأول، لأنهم إن كانوا على خلق وحَلُّوا مسائلهم وما يعرض لهم من مشاكل بصيغة أخلاقية فإن الذين سيأتون لإدارتهم لن يكونوا أشخاصاً سيئين. ولأنقل لكم هنا حادثة واقعية تتعلق بهذا الموضوع:

كان "طاهر أفندي" أحد النواب في المجلس النيابي الأول. وكان عالماً فاضلاً. وبينما كان النواب الآخرون منهمكين في إلقاء الخطب الرنانة في الساحات، كان طاهر أفندي يفضل لزوم الصمت. غير أن محبيه وأنصاره ألحوا عليه كثيراً لإلقاء خطبة في أحد الميادين وأقنعوه بذلك. ولكونه شخصاً لا يحب الثرثرة، بل يفضل الكلام الموجز المفيد فقد قال لهم في خطبته تلك:

"أيها الحاضرون! اعلموا أنكم منتخبون وأننا منتخَبون ومجلسنا هو منتخَب إليه وإن ما قمتم به يدعى عملية الانتخاب. وكلمة الانتخاب مشتقة من كلمة "النخبة". والنخبة تعني زبدة الشيء فلا تنسوا أن زبدة كل شيء ترجع إلى نوعية ذلك الشيء. ففوق الحليب تتكون زبدة الحليب، وفوق اللبن تتكون زبدة اللبن، وفوق مادة الشب تتكون زبدة الشب."

ويضاهي هذا الجواب الذي أجابه الحَجّاج بن يوسف الثقفي للشخص الذي حدثه عن عدالة عمر بن الخطاب ﷺ إذ قال الحجاج:

"لو كنتم أنتم مثل أصحاب عمر ﷺ لكنتُ أنا مثل عمر بن الخطاب."

ثالثاً: إن على كل إنسان أن يبحث عن التقصير في نفسه. فما دام كل إنسان يحامي عن نفسه ويدافع عنها فقط، ويبحث عن التقصير عند غيره، فلن

يمكنه إحراز أي تقدم إيجابي. فلو لم يغير الناس أنفسهم فإن الله لا يغير ما بهم.[1] فإذا كان هناك فساد في الداخل فلابد أن يسري ذلك الفساد إلى كل مكان حتى يصل إلى القمة.

ويمكن أن نقول نفس الشيء حول صلاح الناس الداخلي واستقامتهم. إذن، يمكن القول بأن وضع ولاة الأمور مرتبط بوضع المواطنين ارتباط النتيجة بالسبب. ومن يدري ماذا يحتوي هذا القول الموجز من جواهر أخرى، وربما استطاع أهل العلم استنباط معانٍ أخرى أكثر سعة وعمقاً. فليس هناك قول بشري آخر يشير ويحث إلى وجوب بناء المجتمع بناء صالحاً بكلمات في غاية الوجازة مثل هذا القول. ولا عجب فإنه من صاحب الفطنة العظمى الرسول محمد ﷺ الذي يحلق كل بيان له في سماء الفصاحة والبلاغة.

أجل، إنه يحتل أسمى مكان بين الناس جميعاً في ميدان البيان والفصاحة، فليس هناك من أديب يستطيع أن يبلغ تلك الذروة. صحيح أن أقواله ليست آيات من القرآن، ولكنها بمجملها تحمل صفة الإلهام، ولهذا السبب فإن جميع الأدباء والفصحاء -كما قلنا في بداية الموضوع- لن يصلوا إلى درجة الْخَدَمِ عنده.

لقد كان حَسّان بن ثابت شاعراً كبيراً دعا له الرسول ﷺ ومدحه وأيده جبريل عليه السلام. ومع هذا فقد استطاعت الخنساء أن تجد ثمانية أخطاء في أربع أبيات من شعره... هذه الشاعرة العظيمة التي أسلمت عندما استمعت إلى رسول الله ﷺ، وأصبح كل همها هو الاستماع إلى سلطان البيان الذي سحرها كلامه إلى درجة

(١) انظر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

أنها عندما بلغها استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية لم تنطق بكلمة شكوى واحدة، وهي نفسها التي أغرقت عهد الجاهلية بأشعار الرثاء لأخيها صَخْر والبكاء عليه. ولكن عندما يبلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة في معركة القادسية لا تشتكي بل تقول: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم."[1]

كانت الخنساء من الملهَمات. فكلما سقط ابن لها شهيداً في المعركة تلوَّتْ من الألم وهي تحس كأن السهم أصاب صدرها هي، ولكن ارتباطها بالرسول ﷺ كان قويا إلى درجة أنها لم تتلفظ بكلمة شكوى واحدة.

ز. **الأعمال بالنيات**

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عمر بن الخطاب ﷺ هذا الحديث:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.»[2]

لما كانت الهجرة هي السبب وراء هذا الحديث فقد كانت الهجرة هي صلب الموضوع فيه، ذلك لأن سبب هذا الحديث كان الحادثة التالية حسب إحدى الروايات:

كان الجميع يهاجرون من مكة إلى المدينة في سبيل الله، ولكن صحابيّاً لا نعرف اسمه هاجر من أجل امرأة اسمها أم قيس.[3] لقد كان هذا الصحابي

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٤/٢٨٨

(٢) **البخاري**، بدء الوحي، ١؛ **مسلم**، الإمارة، ١٥٥؛ **أبو داود**، الطلاق، ١١

(٣) «**فتح الباري**» لابن حجر ١/٢٤-٢٥

مؤمنا، غير أن نيته في الهجرة لم تكن مثل الآخرين. كان مهـــاجراً أيـــضاً... ولكن في سبيل "أم قيس"، التي عانى كل مشقات الهجرة في سبيلها، لذا أصبح هذا العمل موضوع حديث رسول الله ﷺ دون ذكر أي اسم. فحكـــم هـــذا الحديث عام يشمل كل شيء وكل شخص، لأن العـــبرة بعمـــوم الحكـــم لا بخصوص السبب.

١. النية

أجل، إن جميع الأعمال حسب النيات، وليست الهجرة وحدها. فإن كانت نية الشخص المهاجر متوجهة إلى الله ورسوله وجد قبالته الله ورسوله. والشيء نفسه نجده في الصلاة وفي الصيام والزكاة. وكما ورد في حديث سابق فمـــن يحفظ حقوق الله يجده تجاهه «اِحْفَظ اللهَ يَحفظْكَ»؛ وهذا يعني أنه سيجد أمامه عناية الله وكرمه ورحمته. وعندما يجد الإنسان أمامه هذه العناية والكرم تجيش عواطفه ويخر ساجداً لربه فيزداد قرباً منه. وكلما ازداد قرباً مـــن الله كلمـــا صفت نياته في جميع أعماله وأفكاره. وفي ظل إخلاص النية هذه وعندما ينتقل إلى العالم الآخر الذي يتبدل فيه كل شي، أي في القبر وفي البرزخ وفي الحـــشر وفي الصراط سيجد الله تعالى أمامه، فإن استطاعت أعماله أن توصله إلى درجة "لواء الحمد" فسيجد أمامه رسول الله ﷺ وسيسعد بصحبته فيلقى صحبة وراء كل تصور أو خيال.

أما من كانت نيته لغير الله، بل كانت هجرته وتعبه ومشقته مـــن أجـــل امرأة، أي أن نيته كانت للذة مادية، فهذا يعني في نهاية الأمر أن جميع جهـــوده والمشقات التي عاناها تكون هباء منثوراً.

إن من يعيش لجسده، وللذات بدنه، ولا يستمع لصوت روحه ووجدانه سيقضي حياة فارغة لا معنى لها، ولن يجني أبداً النتائج التي يجنيها من نظم حياته في سبيل مرضاة الله تعالى. وقد ورد في حديث آخر: «نية المؤمن خير من عمله.»[1] ذلك لأن الإنسان مهما جهد فلن يصل إلى الهدف الذي نوى الوصول إليه. فكان من رحمة الله الواسعة أن يعامل المؤمن حسب نيته، لأن نيته ستكسب المؤمن أكثر من عمله. ومن ثم كانت نية المؤمن خيراً من عمله من هذه الجهة.

وأنا أود لفت نظركم إلى حديث آخر له علاقة بهذا الموضوع إذ يقول الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.»[2]

إذا كنت خالص النية ووجدت تربة صالحة، فإن كل بذرة تبذرها ستنبت نباتاً حسناً. ومع أنها ستكون نبتة ضعيفة في بداية الأمر إلا أنها ستصبح فيما بعد شجرة باسقة نتفيأ ظلالها في الدار الآخرة. وكلما كانت نيتنا صافية كلما بسقت هذه الشجرة ووهبتنا ثمارها في الجنة. بالنية تنقلب عادات الإنسان وحركاته الاعتيادية إلى عبادة خالصة. فالشخص الذي ينام ناوياً قيام الليل تكون أنفاسه وهو يغط في النوم بمثابة ذكر لله. ولولا ذلك كيف كان يمكن للإنسان وهو بهذا العمر القصير وبهذه الأعمال القليلة أن ينال الجنة؟

أجل، إن كانت الحياة الأبدية مهداة إلى المؤمن، فهي لطف ونعمة مهداة

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٦١/١، ١٠٩

(٢) **البخاري**، الإيمان، ٣٩؛ **مسلم**، المساقاة، ١٠٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٧٠/٤

لنيته في العبودية الأبدية مما يكسب بها الجنة الخالدة. والشيء نفسه وارد في القطب المقابل أي قطب الكافر الذي يستحق النار الأبدية. أجل، إننا نكسب الجنة بسبب نيتنا في العبودية الأبدية. ويكسب الكافر النار بسبب الجحود الأبدي الموجود في نيته.

إن النية وحدها هي التي تكسب الأعمال قيمتها بلا أي استثناء سواء أكانت هذه الأعمال كبيرة أم صغيرة، وتنفخ فيها الحياة فتحييها. بل إن النية وحدها في أعمال الخير والبر تكسب الإنسان الكثير من الأجر؛ فمثلاً إنْ همّ الإنسان بحسنة مّا و لم يعملها فِعْلاً فإنه يكتسب أجراً من جراء نيته، فإنْ عملها اكتسب أجر عشر حسنات أو مائة أو أكثر كما يشاء الله تعالى. أما إن هم بسيئة ثم لم ينفذها فلا تكتب له سيئة من جراء نيته السيئة تلك، وإن قام بها كُتبت له سيئة واحدة فقط.[1] ولا شك أن كل سيئة لها عقاب من جنسها.

٢. الهجرة

ومن الجدير بالملاحظة مدى إشارة الحديث لأهمية الهجرة. صحيح أن الهجرة بمعناها الخاص قد انتهت، لأن رسول الله ﷺ يقول: «لا هجرة بعد الفتح»[2] ولكن الهجرة في معناها العام مستمرة حتى يوم القيامة، ذلك لأن الهجرة توأم للجهاد، وُلِدا معاً ويعيشان معاً. والنبي ﷺ يخبرنا بأن الجهاد مستمر حتى يوم القيامة إذ يقول: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.»[3]

---

(١) **البخاري**، الرقاق، ٣١؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٠٦-٢٠٧

(٢) **البخاري**، الجهاد، ١؛ **مسلم**، الإمارة، ٨٥

(٣) **أبو داود**، الجهاد، ٣٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠٦/١

أجل، إن الشخص الذي يترك أباه وأمه وديارة ووطنه قاصداً ديار الغربة من أجل إيصال دعوة الله إلى الناس... هذا الرجل الداعية وكل إنسان مؤمن هو في هجرة دائمة وسينال ثوابها.

ومن جهة أخرى لم يعيّن الله ثوابا محدَّداً للهجرة في سبيل الله ورسوله، مما يشير إلى أن ثواب مثل هذه الأعمال تعطى يوم القيامة على شكل مفاجأة سارة. فالملائكة تسجل هذه الأعمال كما هي، والله ﷻ هو الذي يقدر ثوابها.

إن أداة "إنما" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، وهذا معناه أن العمل لا يكون عملاً إلا بالنية. فأي عبادة دون نية لا تعد عبادة، لذا فإنْ صلَّى أحدهم ركعة دون نية، أو بقي جائعاً لسنوات أو وهب جميع أمواله، أو قام بجميع مناسك الحج دون نية لا يعد هذا الشخص مصلياً أو صائماً أو مزكياً أو حاجاً؛ لأن النية هي التي تحول جميع هذه الأعمال إلى عبادة.

أ- الهجرة من الذنوب

وعندما ندقق النظر في الحديث نرى أن رسول الله ﷺ شرح موضوع النية وهو موضوع واسع بثلاث كلمات، ثم أشار إلى موضوع الهجرة وهو موضوع متشعب بجملتين أو ثلاث مبتدئاً بذكر الهجرة التي تعني ترك المعاصي والذنوب ومتناولاً جميع الهجرات في سبيل الحق حتى يوم القيامة بجملتين أو ثلاث وبأسلوبه "السهل الممتنع"، وهذا لا يتيسر إلا لسيد الفصحاء والبلغاء. ومن المفيد القول بأن أفضل المهاجرين هو من هجر المعاصي والذنوب وأخلى قلبه

من جميع أنـــواع الحب عـــدا حـــب الله تعالى.[1]

دعا إبراهيم بن أدهم ربه يوماً فقال:

"يا رب! لقد فَنيتُ في حبك، هجرتُ كل شيء وجئت إليـــك، لم تَعُـــدْ عيوني ترى شيئاً غيرك..." وبينما كان مستغرقاً في جو هذا الدعاء الحار، رأى ابنَه بجوار الكعبة، ورآه ابنُه كذلك، فدَفعتْ لَوعة فراق السنين كلاًّ منهما نحو الآخر. وفي لحظة العناق الحار سمع إبراهيم بن أدهم هاتفاً:

"يا إبراهيم..! لا يجتمع حبان في قلب واحد" فصرخ إبراهيم: "خذ إليك يا رب من كان حائلاً بيني وبين حبك" فهوى ابنه تحت قدميه ميتا.[2]

ب- **الهجرة إلى الرحمة الإلهية**

من الهجرة الفرار من المعاصي إلى باب الرحمة الإلهية، ولزوم هـــذا البـــاب حتى مجيء العفو الإلهي. وما أحسن قول القائل معبراً عن هذا المعنى:

إلهي عبدك الـــعاصي أتاك مُقِراً بالذنوب وقـــد دعـــاك

وإن تـــغفر فأنت أهل لذاك وإن تَطْرُدْ فمن يرحم سواك

إن الإنسان الذي يكره العودة إلى المعاصي والذنوب التي تاب منها، أكثـــر مما يكره إلقاءه في النار هو الإنسان الذي يسلك طريق الهجرة بحق وصدق.

---

(١) الحديث الذي يذكر هذا هو «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه.» انظر: **البخاري**، الإيمان، ٤؛ **النسائي**، الإيمان، ٩؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢؛ **ابن ماجه**، الفتن، ٢

(٢) «**تذكرة الأولياء**» لفريد الدين العطار (ترجمته باللغة التركية) ص١٤٦-١٤٩

إن الإنسان الذي ينظر إلى حمى الله في أرضه نظرته إلى ساحة ملغومة بالمتفجرات، والذي يصون يده ورجله وعينه وأذنه وفمه وشفته عن المعاصي يعد مهاجراً في سبيل الله طوال حياته سواء أكان بين الناس. أم كان منزوياً ومعتكفا. فالهجرة مستقرة في أعماق قلبه وهي رفيقته، غير أن الهجرة في الاعتكاف لها طعم آخر وبعد آخر، إذ يصل الإنسان فيه إلى "الأنس بالله" ويستقبل النفحات الإلهية.

وإذا أردنا تلخيص هذا الموضوع يمكنا أن نقول إن هذا الحديث الشريف يومئ إلى عدة مسائل:

أ. أن النية هي روح العمل، والعمل يعد ميتاً إن كان بغير نية.

ب. أن النية إكسير نوراني حافل بالأسرار يحول الحسنات إلى سيئات والسيئات إلى حسنات.

ج. أن ارتباط العمل بالنية هو الذي يجعله عملا، فالهجرة دون نية تعد سياحة، والجهاد دون نية يعد بغيا، والحج دون نية نزهة، والصلاة دون نية رياضة، والصوم دون نية حمية لغاية صحية. ولكي تكون كل هذه العبادات أجنحة تطير بالإنسان إلى الجنة فلابد من النية الخالصة.

د. أن الجنة الخالدة الأبدية نتيجة لنية العبودية الأبدية، والنار الأبدية نتيجة لنية الجحود والإنكار الأبدي.

هـ. أن الإنسان يستطيع بنيته الحصول على نتائج كبيرة وجوائز ثمينة بجهد صغير وبثمن قليل.

و. إن من يستثمر جوهرة النية بحق يستطيع أن يملك بها الدنيا وما فيها.

ز. أن الدنيا والمرأة رغم كونهما من نعم الله إلا أن سوء استعمال هذه النعم، وعدم مراعاة الموازين الشرعية عند التعامل معهما يعني إقامتهما بديلين لرضا الله ورسوله، وذلك يجر إلى خسارة الإنسان كل شيء في مجال الكسب.

وفي النهاية لقد استطاع هذا الحديث في ثلاث أو خمس جمل أن يضم كل هذه المعاني الكبيرة وغيرها والذي يحتاج كل معنى فيها إلى كتاب كامل لشرحه. أي استطاع سيد البيان ﷺ أن يرينا الشمس في ذرة، والبحر الزاخر في قطرة.

ح . **بلاء اليد واللسان**

يروي البخاري من صاحب جوامع الكلم ﷺ هذا الحديث:

«المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.»[1]

١. **المسلم المثالي**

والآن لنحلل هذا الحديث باختصار:

للام التعريف في كلمتي "المسلم" و"المسلمون" هنا معنى محدد. فالمسلم المثالي هو الذي دخل إلى جو السلم والسلامة والثقة وأذاب كيانه فيه. وهو المؤمن الذي لا يمد لسانه ولا يده بالأذى للمؤمنين من أمثاله، وليس الذي

(١) **البخاري**، الإيمان، ٤؛ **النسائي**، الإيمان، ٩؛ **أبو داود**، الجهاد، ٢؛ **ابن ماجه**، الفتن، ٢

مكتوب في هويته أو بطاقته الشخصية أنه مسلم أي المسلم بالجنسية، فالموضوع هنا يتعلق بصفات المسلم الحقيقي والمؤمن المثالي.

فلام التعريف هنا للعهد، والقاعدة تقول: إن إطلاق الذكر يصرف نحو كمال الوصف. لذا، فعندما ترد كلمة المؤمن فإن الذهن ينصرف إلى معنى "المؤمن الكامل". والمؤمن أو المسلم المذكور في الحديث الشريف هو من هذا النوع.

والإنسان لا يعلم عادة هذه الأمور اللغوية الدقيقة، فلا يعلمها سوى من تعلم في المدارس أو في حلقات التدريس أو عند أحد العلماء فيتعلم دقائق النحو ودقائق اللغة. ولم يكن هذا وارداً بالنسبة لرسول الله، فكلامه لم يكن من عنده، بل من عند المعلم الأزلي. لذا، نرى في بيان الرسول ﷺ جميع دقائق اللغة، وإضافة إلى هذا لا نجد فيه أي قصور أو مخالفة أو خطإ لغوي.

والآن لنرجع إلى الحديث. المسلم هو إنسان السلام والأمن إلى درجة أن المسلمين الآخرين يستطيعون أن يديروا له ظهورهم بكل أمن، لأنهم يعلمون بأنه لن يؤذي أي أحد. وعندما يضطرون إلى إيداع أهلهم أمانة عنده يستطيعون ذلك دون أن يخالجهم أي خوف، لأنهم يعلمون عدم صدور أي أذى منه، لا من لسانه ولا من يده. وعندما يتركون مجلساً ضمهم معه، فإنهم يتركونه وهم مطمئنون بأنه لن يغتابهم في غيابهم، ولن يستمع إلى غيبتهم من أحد الحاضرين. وهو يراعي كرامة الآخرين وعرضهم كما يراعي كرامته وعرضه تماماً. قد لا يأكل ولكنه يُطْعِم. قد لا يشرب ولكنه يسقي، وقد يفتدي الآخرين بروحه، بل قد يضحي بأحاسيس فيوضاته الروحية من أجل الآخرين. ونحن نستخرج كل هذه المعاني من لام التعريف التي تفيد معنى الحصر.

٢. السلم والمسلم

من جانب آخر هناك جناس بين هاتين الكلمتين. فكلمة "المسلم" وفعل "سلم" يأتي كلاهما من جذر "س ل م". ونظراً لوجود بعض التشابه بين حروفهما فالجناس هنا جناس ناقص. غير أن صيغة كل من هاتين الكلمتين مختلفتان، فهذا التشابه والاختلاف يذكرنا بالمعنى التالي:

المسلم هو الإنسان الذي تجري جميع الأمور عنده في "سلم" وفي "سلامة" و"سلام". فقد ترك نفسه إلى الشوق الإلهي بحيث أصبحت جميع حركاته وسكناته حول هذه القوة المركزية. هو يسلِّم على الجميع، على من يعرفه وعلى من لا يعرفه... لذا، تستقر محبته في القلوب.(١)

عندما ينهي صلاته ينهيها بالسلام فتتلقى الكائنات العاقلة جميعها هذا السلام من إنسها وجنِّها وملائكتها. فهو يسلم على هذه الكائنات وإن لم يكن يراها. وليس هناك عدا المؤمنين من أفشى السلام بهذه الصورة الواسعة.

يتم الدخول إلى الإسلام بأداء أركان الفرائض: الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين، وهذا يتم بالدخول إلى السلم حسب أوامر الآية الكريمة: ﴿ادخُلُوا في السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨). أي ينشر شراعه في بحر السلم ويبحر فيه. ومثل هذا الشخص يفوح سلماً وسلاماً في كل حركة من حركاته، ولن يجد أي أحد فيه شيئا سوى الخير ولن يتوقع أو ينتظر منه سوى الخير.

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٢٠؛ **مسلم**، الإيمان، ٦٢

٣. لِـــمَ اليد واللسان ؟

كما هي العادة في كلام رسولنا ﷺ فإن جميع الكلمات المتعلقـــة بالموضـــوع مختارة بعناية فائقة. وكما يلاحظ فإن الحديث يشير إلى اليد وإلى اللسان، إذن، فلا بد من وجود حكم عديدة في ذكرهما دون سائر الأعضاء، ذلـــك لأن الإنـــسان يستطيع أن يضر إنساناً بطريقتين... إما يضره وجهاً لوجه، أو يضره غيابياً أي من وراء ظهره. فالضرر الذي يقترفه وجهاً لوجه يمثله الضرر باليد، والـــضرر الـــذي يقترفه غيابياً يمثله الضرر باللسان. أي إما أن يعتدي الإنسان بنفسه على حقـــوق الشخص الموجود أمامه أو يعتدي على حقوقه في غيابه بأن يغتابه ويهينه ويحقره. وكلا الأمرين قبيحان ولا يمكن صدورهما من المؤمن أبداً، لأنه يتـــصرف دائمـــا بمروءة حيال الآخرين سواء أكانوا في حضوره أم لم يكونوا.

ثم إن رسولنا ﷺ يذكر اللسان قبل اليد، ذلك لأن من المحتمـــل أن يقـــوم الشخص الآخر بمقابلة الاعتداء اليدوي، غير أن الغيبـــة الـــصادرة في غيـــاب الشخص أو الافتراءات الواقعة عليه تبقى في معظم الأحوال دون مقابل. لذلك فإن مثل هذا التصرف يؤدي إلى زرع العداوات بكل سهولة بين الأفراد بـــل حتى بين الأمم. فتعقب أضرار اللسان أصعب من إزالة الأضرار الـــتي تحـــصل وجهاً لوجه، لذا قدم الرسول ﷺ اللسان على اليد. ومن ناحية أخرى تجـــد في هذا الحديث قيمة المنـــزلة التي يحتلها المسلم عند الله، بحيث أن أي مسلم آخر لا يستطيع أن يمد له لسانه أو يده.

إن أحد الأبعاد الخلقية المهمة للدين الإسلامي الذي جاء لتأسيس الأمـــن والسلام هو أن الفرد المسلم مثلما يجب عليه الابتعاد عن كل ما يضر شخصه

ماديا أو معنويا، كذلك يجب عليه الابتعاد عن الإضرار بالآخرين. وليس هـذا فحسب بل عليه أن يكون ممثلاً للأمن والأمان في كل شـريحة مـن شـرائح المجتمع. أجل، إن المسلم مسلم حقيقي بدرجة شعور الأمن والأمـان الـذي يضمه في جوانحه. وهو في غدوه ورواحه وحركاته وسكناته وقيامه وقعـوده ترجمان للشعور النابع من "السلام"[1]: فعند مقابلته للمؤمنين يـسلِّم علـيهم، وعندما يفارقهم يتمنى لهم السلامة... يزين تحيات صلاته بالـسلام، ويخـتم صلاته بالسلام على المؤمنين قبل مغادرة الحضور الإلهي. لذا، فإن من المحال لمثل هذا الشخص الذي أرسى حياته حول محور السلام أن يسير في طريق معاكس لفكره الأساسي، ومضاد للأمن وللسلام المـادي أو المعنـوي، الـدنيوي أو الأخروي. وبعد هذه النظرة من شاهق على هـذا الحـديث، لنـذكر هـذه الخصائص المنبثقة من روح الحديث:

أ – إن المسلم الحقيقي أفضل ممثل للسلام العالمي في الأرض.

بـ– إن المسلم أينما وجد ينشر حواليه روح السلام، هذا الذي تشربت به أعماق نفسه.

جـ– لا يبتعد المسلم عن إلحاق الأذى أو الضرر بالآخرين فحـسب، بـل يكون رمزاً للأمن والاطمئنان في كل مكان يُذكَر فيه.

د– لا فرق عند مثل هذا المسلم بين الاعتداء الذي يتم باليد، أو الاعتـداء الذي يتم باللسان غيبة ونميمة، أو بالافتراء والبهتان أو بالإهانة والتحقير. بـل يكون ذنب الاعتداء باللسان أكبر من ذنب الاعتداء باليد.

---

(١) "السلام" هنا اسم من أسماء الله تعالى. (المترجم)

هـ- إنْ اقترف المؤمن بعض هذه الذنوب فسيبقى مؤمنا ولا يخرج عن ملة الإسلام، أي لا تكون هذه الذنوب حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر حسب عقيدتنا.

ويشير هذا الحديث ذو البيان المعجز في سطر واحد فقط إلى أن الإنسان يجب أن يسعى في موضوع الإسلام والإيمان -كما في غيرهما من المسائل- ليس إلى الإسلام أو الإيمان الاعتيادي بل إلى مراتبها العليا، ويضع الحب والشوق في القلوب لبلوغ هذه الغايات.

ط . **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**

ننتقل إلى حديث مضيء آخر لرسولنا ﷺ حيث يقول ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنيه.»[1]

يبين الحديث سر وصول المؤمن بإسلامه إلى درجة الإحسان والإتقان، أي الوصول إلى إسلام متين ودون شروخ أو قصور من ناحية المظهر الخارجي وإلى درجة سر الإحسان من ناحية الباطن. فالواصل إلى هذه الدرجة عليه أن يترك ما لايعنيه... وهو لا بد تاركه.

١. **الوقار الداخلي ينعكس على المظهر**

إن عبادات الأشخاص المتسمين باللامبالاة وعدم الجدية تكون كذلك أيضاً غير جدية. وشخص من هذا الطراز قد يقوم للصلاة مُظْهِراً الجدية والوقار، ولكن إن لم تبلغ الجدية والوقار أعماق قلبه ووجدانه وعالمه الداخلي كيراعة تحاول أن تظهر نفسها نجمة لامعة، لا ينجح في الاستمرار في مثل هذا التمثيل،

(١) **الترمذي**، الزهد، ١١؛ **ابن ماجه**، الفتن، ١٢

وذلك لاستحالة إخفاء الخُلق والسلوك. فكل إنسان سيتصرف -إن عاجلاً أو آجلاً- حسب طبيعته وحسب خلقه، إلا إذا أصبحت الجدية والوقار طبيعة ملازمة له. ولا يمكن الوصول إلى هذا المستوى إلا بالتمرين والتدريب والرياضة الجادة للنفس. فإن كانت هذه الرياضة موجودة أصبح الجد خلقاً وتراجع "التظاهر". ولكن الإنسان ابن لاشعوره، ولا يستطيع التخلص منه، فالعصفور لا يستطيع تقليد مشية الطاووس مدة طويلة. ونستطيع جمع أطراف هذا الموضوع كما يأتي:

حتى يبرز الإتقان خارج النفس فلا بد أن يوجد داخلها الإحسان، أي أن المظهر الخارجي يجب أن يستمد العون من الداخل... فيجب أن يكون داخل النفس جاداً وقوراً لكي يسري ذلك إلى المظهر الخارجي.

عندما ذُكِر أحد الصحابة الكبار أمام عمر بن الخطاب ﷺ بأنه يستحق أن يكون خليفة قال عمر ﷺ: "إنه أهل للخلافة، غير أنه فيه بعض المزاح، والخلافة جِدٌّ لا هزل فيها."[1]

فإذا كانت الخلافة التي تقتضي إدارة الناس تتطلب الجدية، ألا تتطلب خلافة الله في الأرض جدية؟ إن الإنسان الذي لا يتسم بالجد والوقار وهو بين يدي خالقه ومولاه، كيف يستطيع أن يكون شخصا جادّاً في المواضع الأخرى؟

٢. شعور الإحسان والجد

إن كلمة "مِنْ" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، أي هنا شرح للطريق

(١) «**عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة**» لشِبْلي النعماني ٢٩٩/١

الذي يوصل المسلم إلى مرتبة الإحسان، وهو تركه اللامبالاة. فطالما لم يكتسب الإنسان الجد و لم يترك اللامبالاة فلا يمكنه البلوغ أبداً إلى مرتبة الإحسان.

في حديث جبريل عليه السلام يتم تناول مرتبة الإحسان في المرحلة الأخيرة. فعندما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ سأله أولاً عن الإيمان ثم عن الإسلام وبعد أن صدّق أجوبة رسول الله ﷺ سأله: ما الإحسان؟ فأجابه نبينا: «أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[1]

والوصول إلى هذه المرتبة لا يتم إلا بعميق التقوى والزهد والولاية. وعلى الإنسان أن يعيِّن الوصول إلى هذه المرتبة كهدف مثالي وأن يجرب الطرق المؤدية إليها. إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. أجل، إن قلب الإنسان بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، وكل شيء تجلٍّ من تجلياته، فمن العبث البحث عنه في الخارج، ذلك لأنه أقرب إليه من نفسه، وانكشاف هذا السر يكون في مرتبة الإحسان.

٣. الإتقان في كل شيء

عندما يغمر الإحسان قلب الإنسان ووجدانه يسود الإتقان جميع تصرفاته. والله تعالى يحب العمل المتقن، إذ يقول في القرآن الكريم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

أي أن جميع الأعمال ستعرض على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين من

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٤؛ سنتناول باختصار هذا الحديث فيما بعد.

ذوي القلوب النيرة والعقول الأريبة وتمر من تدقيقهم وتفتيشهم. لذا، يجب أن يضع الإنسان نصب عينيه أن كل عمل يؤديه سيمر من خلال التفتيش والتمحيص، ولذا، فعليه أن يعمل عملاً لا يستحيي ولا يخجل منه. ولا يتأتى ذلك إلا بإتقان ذلك العمل. ولكي يوفَّق الإنسان لأداء مثل هذا العمل عليه أن يكون واصلاً لمرتبة الإحسان. وعندما يتعمق العالم الداخلي للإنسان ترتفع درجة الإتقان في عمله، فلا يسقط في وهدة اللامبالاة، وهكذا يحصل على محاسن الإسلام، أو بتعبير آخر يعيش الإسلام الحقيقي، ويصل إلى منزلة ملائمة للإسلام الحقيقي الجميل في ذاته.

و"ما لا يعنيه" هي الأمور التي لا علاقة له بها وغير الضرورية وغير المفيدة له لا في حاضره ولا في مستقبله، بحيث لو انشغل بها فلن يستفيد منها لا هو ولا عائلته ولا أمته أي فائدة. وهكذا فالذي استطاع إدراك جمال الإسلام والوصول إليه يكون قد ابتعد في الوقت نفسه عن اللامبالاة وعدم الجدية.

فهذا الحديث يعلّم الإنسان ما ينبغي. إذ أن عليه أن ينشغل فقط بالمسائل العلوية، بحيث أن كل مسألة منها تكون ذات فائدة له ولأسرته ولمجتمعه، وهذا في الحقيقة هو تعريف للإنسان الجدي.

ولا أتمالك نفسي هنا من عرض أمر دقيق أتحسسه من خلال هذا الحديث: ما المقصود بـ"ما لا يعنيه"؟

إن الشخص المشغول بما لا يعنيه لا يجد الفرصة أمامه لكي ينشغل بما يعنيه حقا، إذ لا يجد الوقت الضروري والكافي لذلك. إن الشخص الذي لم يكتشف حقيقة نفسه بعد، ولم يجد الجو والاتجاه المناسب، لا يمكن أن يقدم

على إنجاز إيجابي أو عمل جيد. فالإنسان المغمور حتى ذقنه بما لا يعنيه لا يمكن أن يكون منفتحا على ما يعنيه، لأن قلبه ورأسه مليئان بأمور تافهة وعرجـــاء، فكيف ننتظر من مثل هذا الشخص الانشغال بشيء ذي قيمة؟

وهكذا استطاع رسول الله ﷺ التعبير عن كل هذه المعاني بجملـــة واحـــدة مؤلفة من بضعة كلمات. وعندما قمت بشرح معانيه لم أقل شيئا. كـــل مـــا قمت به هو أنني حاولت أن أهوي بمعول التعبير على البنية الرصـــينة الـــصلبة لذلك الحديث، فكان كل ما وصلكم عبارة عن بعض القطع المتناثرة منها. وقد لا أكون موفقاً في شرح تلك المعاني كما يجب. غير أن عجزي وعجز أمثـــالي ليس إلا برهاناً لمدى قوة التعبير عند رسول الله ﷺ وقوة بيانه وفصاحته، ذلك لأننا لا نحيط علماً بكل معاني أقواله ﷺ التي كان يرسلها ارتجالاً دون تحـــضير سابق. فالمعاني التي يضيق عنها عالمنا الفكري كانت المعاني الاعتياديـــة الـــتي يتحدث بها كل يوم. فهل يمكن تفسير هذا إلا بالفطنة؟ إن كلمة العبقرية تبقى هزيلة وعاجزة في شرح هذه الخصلة.

يـــ . الصبر

يتفق مسلم والبخاري في رواية هذا الحديث: «إنما الصبر عنـــد الـــصدمة الأولى.»[1]

عندما شاهد رسول الله ﷺ استمرار بعض العادات الجاهلية عنـــد زيـــارة القبور، منع المؤمنين من هذه الزيارة. ولكنه عاد بعد ذلك وأباحها ودعا إليها إذ قال: «قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أُذِنَ لمحمد في زيارة قبر أمـــه،

(١) **البخاري**، الجنائز، ٣٢؛ **مسلم**، الجنائز، ١٤، ١٥

فزوروها فإنها تُذَكِّر بالآخرة.»[1] ذلك لأن أفضل نصيحة للإنسان وأكثرها تأثيراً في إنقاذه من طول الأمل موجودة في القبر. ولقد كان رسول الله ﷺ الذي كان رمزاً للوفاء يزور القبور كثيراً ويزور شهداء أحد مرة في الأسبوع على الأقل.

عن أنس بن مالك ﷺ قال مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اتَّقي الله واصبري»، قالت: إليكَ عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي و لم تعرفه. فقيل لها إنه النبي، فأخذها مثلُ الموت، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين. فقالت: لم أعرفك... فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»[2]

فقد شرح في أربع كلمات بليغة معجزة مسألة يحتاج بيانها إلى مجلدات.

إن للصبر أنواعا متعددة: الصبر على المصيبة، والصبر في مقاومة الذنوب والآثام، والصبر على العبادة والاستقامة عليها. فأداء الصلاة خمس مرات في اليوم وصيام شهر واحد كل عام على الأقل وأداء الزكاة وإيفاء حق الأوامر الأخرى المتعلقة بالعبودية... كل هذه الأمور تتطلب الصبر وتنظم حياة الإنسان وتصبغ حياته صبغة أخروية. وتنقضي مثل هذه الحياة في درب نوراني وجو تغمره البركة مثمراً الجنة في نهاية المطاف. لذا، كان على الإنسان أن يعض بالنواجذ على هذه العبادات ويصبر عليها لكي ينور حياته ويضيئها.

فالصبر مُرّ مثل تناول "عشب الصبار" المرّ المذاق الذي يستعمله الأطباء في

---

(١) **مسلم**، الجنائز، ١٠٦؛ **النسائي**، الجنائز، ١٠٠؛ **أبو داود**، الجنائز، ٧٧؛ **الترمذي**، الجنائز، ٦٠؛ **ابن ماجه**، الجنائز، ٤٧

(٢) **مسلم**، الجنائز، ١٥؛ **البخاري**، الجنائز، ٣٢

تحضير بعض الأدوية. غير أن هذه المرارة ليست إلا في البداية، ثم تكون نتائجها بعد ذلك حلوة على الدوام.

إنه ليس من السهل الصبر على الحوادث المرة الأليمة والصرُّ على الأسنان وتَحمُّل كل المصائب دون فقد للأعصاب ودون اهتزاز أو شلل للفكر وللإرادة. غير أن تحمل هذه الآلام يكون عند الصدمة الأولى. ذلك لأن أي تغيير أو انتقال إلى وضع آخر يؤدي إلى تغيير في الحالة النفسية للإنسان ويخفف عنه ويؤدي إلى نسيانه للحوادث التي هزته.

لنفرض أن مصيبة مّا أصابتنا... سنعتقد في الوهلة الأولى استحالة تحملنا لها. ولكن علينا أولاً أن نزيل أثر الصدمة الأولى، وهذا لا يكون إلا بتغيير وضعنا. فإن كنا وقوفاً علينا أن نجلس، وإن كنا قاعدين علينا أن نتمدد، أو نغير شيئا في نوع فعاليتنا... أن نتوضأ مثلاً أو نصلي أو نبتعد عن موضوع الحديث الذي كنا نتحدث فيه، أو أن نترك موضعنا ونذهب إلى أي موضع آخر أو إلى أي مكان آخر للالتجاء إلى جو آخر. وأحيانا يكون أخذ سِنة من النوم مفيداً في التخلص من أثر الصدمة الأولى. وعلى أي حال فإن تغيير الوضع أو الحال أو المكان يقلل من تأثير الصدمة ويخفف من أثر المصيبة التي حسبنا أننا لن نستطيع تحملها.

كما أن الصبر ضروري في موضوع الاستقامة على أداء العبادات. فالصلاة مثلاً قد تبدو للمبتدئ عبادة صعبة جدا، ولكن ما إن يصبر قليلاً وما إن تمتزج الصلاة بروحه، حتى يكون عدم أدائه لصلاة وقت واحد جحيماً لا يطاق. ويمكن ذكر نفس الشيء بالنسبة للعبادات الأخرى كالصوم والزكاة والحج.

تأملوا معي كيف أن الشخص المؤدي لعبادة شاقة مثل الحج يملأه شوق عارم كل سنة لأداء الحج مرة أخرى، حتى أنه ليكاد يجن من التحديدات التي توضع في موضوع الحج.[1] فمثل هذا الحب للعبادة يعني تجاوز صعوبة الصدمة الأولى... وهذا ينطبق على سائر العبادات الأخرى تقريباً.

وعلى الإنسان أن يتذرع بالصبر نفسه أمام المحرمات أيضاً. لأن المقاومة المعلنة عند الصدمة الأولى لهجوم الإثم على النفس تخمد شرارته وتضعف طاقته، فيتخلص الإنسان من صدمته. لذا، قال رسولنا ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يا عليّ! لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة.»[2] أي إن نظر الإنسان قد ينزلق إلى الحرام، فإذا حوَّل الإنسان وجهه ونظره حالاً فلا يُعَدّ ذلك ذنبا له بل يعد حسنة لأنه لم ينظر إلى حرام. ولكن النظرة الثانية والنظرات الأخرى تنغرز في قلب الإنسان وروحه كسهام مسمومة فتعكر صفو خياله وتضعف القوة المعنوية لإرادته، لأن كل نظرة إلى الحرام إنما هي بمثابة دعوة لتيسير الولوج إلى دروب الإثم والمعصية. فكل نظرة تشوق وتدعو إلى نظرة أخرى، وهنا يبدأ الإنسان بفتح أشرعته للإبحار نحو الحرام ويبدأ رحلة يصعب الرجوع عنها. فقبل الوصول إلى هذه المرحلة يجب الصبر عند الصدمة الأولى للحرام وعدم التوجه إليه، بل إغماض العين عنه، وهذا من الوصايا الذهبية لرسول الله ﷺ لنا.

---

(١) المقصود هو التحديدات التي أصبحت توضع في تركيا وفي غيرها من البلدان الإسلامية حول عدد الأشخاص المسموح لهم بالحج في كل سنة ويكون هذا العدد عادة أقل من عدد الراغبين في الحج مما يولد في نفوسهم الألم. (المترجم)

(٢) **أبو داود**، النكاح، ٤٣؛ **الترمذي**، الأدب، ٢٨؛ **الدارمي**، الرقاق، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٥٣/٥، ٣٥٧

وقديما قال "أبكتيتوس (Epiktetos)": "عندما تحيط بك الخيالات الضارة حاول الهروب منها في أول فرصة. وإلا فلن تستطيع الرجوع من الموضع الذي ستقودك إليه." وهذا قول ملهم، ولو عاش هذا الرجل بعد رسول الله ﷺ لقلنا إنه أخذ إلهامه منه ﷺ.

وعندما يبدي الإنسان هذا التصرف تجاه الحرام على الدوام، يصبح هذا طبعه وديدنه، ذلك لأن النور الذي يتولد في قلبه من جراء هذه التمارين التي يمارسها يكون ستراً له من الذنوب والمعاصي التي هي بمثابة شرارات من جهنم، إلى درجة أن غضه البصر عن الحرام يدخل ضمن سلوكه الفطري الأصيل. ولو هجس بباله هاجس مخالف لَغمس يدَه في خلية عسل الإيمان الموجودة في قلبه ونأى بنفسه في ظل هذه اللذة الإيمانية عن كل ما يبعده عن هذا الجو الإيماني والمعنوي.

لذا، يمكننا القول بأنه من المستبعد جداً أن يدخل مثل هذا الشخص ساحة الحرام بإرادته.

لكل مصيبة صدمة خاصة بها. وعندما يتم تجاوزها تنقلب المصيبة إلى رحمة، والألم إلى لذة، والهموم إلى أذواق، وآلام مثل هذا الإنسان تكون قد سكنت وهدأت وتركت مكانها للنشوة. غير أن كل هذا مرتبط بتجاوز الصدمة الأولى بنجاح. وهكذا عبَّر رسول الله ﷺ عن هذا الموضوع العميق بأربع كلمات فقط «الصبر عند الصدمة الأولى.»

ك . اليد العليا

يقول نبينا ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل رضي الله عنه:

«اليَــد الْعُلْيَا خير من اليد السُّــفْلَى.»[1]

واليد العليا هي التي تنفق وتعطي، واليد السفلى هي اليد التي تأخذ، وذلك كما فسره النبي ﷺ في أحاديث أخرى.[2] وكما أن اليد التي تعطــي هــي في الحقيقة أعلى من اليد التي تأخذ، كذلك فإن في الحديث إشارة إلى أن الثــواب الناتج من الإنفاق يجعل اليد التي تنفق أعلى من اليد التي تأخذ. كمــا أن فيــه استثارة للكرامة الإنسانية لحث وتشجيع ذوي النفوس السليمة علــى العطــاء وتنفيرهم من الأخذ. وقد بيّن الحديث كل هذا بأسلوب رائع وموجز لا تنبــو كل كلمة فيه عن موضعها، فكل كلمة في مكانها وفي موضعها الصحيح.

وحتى لا تبقى عملية الإعطاء والإنفاق معلقة في الهواء فقد جعل هناك يدا تأخذ مقابل اليد التي تعطي، وقد وصف الحديث اليد المعطاء بالخير، ولم يصف اليد التي تأخذ بالشر، ومع هذا فإن في الحديث إشارة من طرف خفي إلى أنها "أقل خيرا" وتنبيه إلى عدم ضرر الأخذ في بعض الظروف.

ومع ورود كل هذه المعاني فإن حديث «اليد العليا خير من اليد الــسفلى» لا يعني مجرد اليد المادية، فالرسول ﷺ قد استعمل الكلمات بمعانيها المجازية.

أولاً: لقد عبر بالجزء وأراد الكل، فالمقصود من اليد هنا الإنسان نفسه أي أن معنى الحديث هو "الإنسان المعطي خير من الإنسان الآخذ."

ثانياً: إن الذي ينفق هو المعطي والذي يُنفَق عليه هو الآخذ، فلــو كــان

---

(١) **البخاري**، الوصايا، ٩، الزكاة، ١٨؛ **مسلم**، الزكاة، ٩٤؛ **النسائي**، الزكاة، ٥٢؛ **أبو داود**، الزكاة، ٢٨؛ **الدارمي**، الزكاة، ٢٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٢

(٢) **الدارمي**، الزكاة، ٢٢؛ **البخاري**، الزكاة، ١٨

الرسول ﷺ قد استعمل هذه الكلمات لشرح صفات اليد لكان يجب أن يقول "اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ"، غير أنه لم يستعمل كلمة "المعطي" ولا كلمة "الآخذ" بل استعمل كلمة "العليا" وكلمة "السفلى" في وصف كلمة اليد. لذا، يرد إلى الخاطر نكتة دقيقة وهي أن اليد التي تعطي ليست أفضل من اليد التي تأخذ في جميع الأحوال. ففي بعض الأحيان قد تكون اليد الآخذة أفضل بكثير من اليد المعطية، وذلك إذا كانت مضطرة أو كانت تحمل نية إثابة اليد المعطية بإنفاق هذا المال في مواضعه الصحيحة، أو عندما يكون صاحب اليد المعطية مناناً، ففي كل هذه الأحوال تكون اليد الآخذة هي اليد العليا، وإن كانت اليد المعطية هي العليا في الظاهر غير أنها تكون السفلى في الحقيقة.

فقد ترى البعض من الفقراء الصابرين... شُعثاً غُبراً... لا يوقرهم الناس في المجالس... وتغلق في وجوههم الأبواب... هؤلاء يصفهم الرسول ﷺ فيقول: «لو أقسموا على الله لأبرّهم» كان البراء بن مالك من هؤلاء.[1] وكان المسلمون إذا وقعوا في ضيق في أي معركة، ذهبوا إلى البراء وطلبوا منه أن يقسم بأن ينتصروا، فيقسم فينتصر المسلمون،[2] وقد تكون يد مثل هذا الشخص يداً آخذة.

وكان ثَوْبانُ من فقراء الصحابة، ومع ذلك أوصاه الرسول ﷺ بألا يسأل الناس شيئا، ومن ذلك اليوم لم يسأل ثوبان من أي إنسان شيئا حتى إن السوط كان يسقط منه وهو يسير بناقته فينزل عنها ويأخذ سوطه بنفسه لكي لا

---

(١) **الترمذي**، المناقب، ٥٥

(٢) «**الإصابة**» لابن حجر ١/١٤٣، ١٤٤

يسأل أحداً شيئاً ثم يركب ناقته.[1] فقد يكون من الناس من أعطى لمثل هـذا شيئاً، وذلك كمن يعطي جبريل عليه السلام المتمثل في شكل إنسان شيئا أو صدقة. فمثل هؤلاء الأشخاص لا يكونون أبداً في وضع أقل أو مرتبة أدنى من مرتبة المعطين والواهبين، ذلك لأننا نعلم من حديث يرويه أبو هريرة أنه عندما يتم إعطاء صدقة لمثل هؤلاء الأشخاص فكأنما أعطاها لله تعالى، وكأن الله تعالى هو الذي أعطى هذه الصدقة لهم.[2]

١. الوصايا

كأن رسول الله ﷺ يوصينا بعباراته هذه الوصايا:

كونوا أعزاء النفوس، ولا تذلوا أنفسكم بالتسول. ولا تهبطوا أبداً أفرادا كنتم أو أمة إلى مستوى اليد الآخذة، بل كونوا دائما اليد المعطاء. وبمثل هذا تُبقون على مكانتكم المرموقة وتحافظون على عزتكم. ولا تنسوا بأن اليد العليا تكون دائماً في أمن وهي تعطي وتبذل، واليد السفلى تكون دائماً في قلق وهي تلتقط العطايا. كونوا أنتم اليد الحاكمة، ولا تكونوا اليد المحكومة، فإن كنتم فوق كنتم اليد العليا.

٢. المقياس الدولي

يشكل هذا الحديث مقياساً وقسطاساً لنا لا يخطئ في المناسبات الدولية. فإن كنا يداً عليا كانت لنا مكانتنا في التوازن الدولي. عند ذلك تجد جماهيرنا

---

(١) **أبو داود**، الزكاة، ٢٧؛ **ابن ماجه**، الزكاة، ٢٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١

(٢) **البخاري**، الزكاة، ٨؛ **مسلم**، الزكاة، ٦٣-٦٤

الفرصة السانحة للتخلص من استغلال القوى العظمى لها ولثرواتها، وإلا لما تخلصت من وضع الجماهير المهانة والمستغلة. والمنظر العام الذي نراه اليوم في عالمنا هو مصداق ما نقول. فالقوى العظمى تقوم بامتصاص دماء الأمم والشعوب مقابل ما تعطيه لهم من دراهم معدودة غايتها الدعاية، تسترجع فيما بعد أضعاف أضعافها. ونحن الآن نعيش ذلة كوننا "اليد السفلى"، لذا، فواجبنا الآن هو السعي على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق ما ينتظره العالم الإسلامي بل الإنسانية كلها منا.

هذه المعاني -ومعانٍ أخرى قد لا نعلمها- موجودة في هذا الحديث الوجيز والبليغ لرسولنا ﷺ.

لـ. زمر ثلاث لا تُزَكّى

يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: الْمُسْبِل إزارَه، والمنّان الذي لا يعطي شيئاً إلا مَنَّه، والمنفِق سِلْعته بالحَلِف الكاذب.»[1]

كلمة "ثلاثة" ذكرت مطلقة، أي قد تعني ثلاثة رجال أو ثلاث نساء أو ثلاث جماعات، وقد يكون هؤلاء الرجال علماء أو جهلاء. لأن هوية هؤلاء الأشخاص ليست مهمة بل أوصافهم هي الأهم، لذا أطلقت هذه الكلمة و لم تقيد. و"ثلاثة" هنا كلمة نكرة، والتنوين في آخرها يفيد النكور أي أن هؤلاء الأشخاص مجهولون وغير معروفين ولا يملكون هوية يُعرَفون بها، لذا فهم

(١) **مسلم**، الإيمان، ١٧١-١٧٤؛ **الترمذي**، البيوع، ٥؛ **النسائي**، الزكاة، ٦٩؛ **أبو داود**، اللباس، ٢٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٦٢/٥، ١٦٨

وضيعون ومحتقرون إلى درجة لا يستحقون إعطاء أي قيمة أو منـــــزلة لهـــم. فكما لا ينظر الله إلى وجوههم ولا يكلمهم، كذلك لن تجدوا أنتم فيهم قيمـــة أو فضلاً لكي تتعرفوا عليهم وتتحدثوا معهم. هؤلاء لم يسقطوا بأجسادهم بل سقطوا وهزموا بأرواحهم وقلوبهم. فانسحق وجدانهم تحت ثقل أجسادهم فلا يملكون أي استعداد للارتقاء، فهم يتدحرجون إلى الدركات السفلى.

وبعد كلمة "ثلاثة" هذه تأتي ثلاثة أفعال تشير إلى المستقبل وترســـم أمـــام الأنظار لوحة قاتمة لهذه الزمر الثلاث.

١. محروميات ثلاث:

أ. المحرومية من التكلم

الفعل الأول هو الفعل المضارع الموجود في بداية جملة "لا يكلمهـــم الله". والفعل المضارع كما يدل على المستقبل فإنه يدل على الحال. والمصيبة تبدأ بخبر أن الله تعالى لن يكلم هذا الإنسان الذي أعطاه ومنحه قابلية الكـــلام، ولـــن يخاطبه. هذه هي المصيبة الكبرى التي تبدأ بالجملة الأولى. ومع أن الله تعالى يَمُنّ على الإنسان في سورة الرحمن بتعليمه البيان ويُعدّ ذلك من نعمه، إلا أنـــه لا يكلم مثل هذا الإنسان، مع أن تكلم الإنسان وتحدثه دليل على صفة الكـــلام عند الباري ﷻ. ولكن هذا الإنسان هبط إلى مستوى لا يقبل فيه الله تعـــالى التوجه إليه بالخطاب، ولا يعطيه هذا الشرف. أهناك عذاب أكبر من عـــذاب الإنسان الذي يمنع من الكلام والذي لا يُستمع إليه في يومٍ هو فيـــه في أشـــد الحاجة إلى الكلام وفي أشد الحاجة إلى شرح حاله والدفاع عن نفسه..؟ إنـــه يطلب النجدة والغوث... ويتقلب ألماً وهو يبحث عمن يشرح له حاله... غير

أن الواحد الأحد الذي يستطيع أن ينجده ويغيثه لا يستمع إليه أبداً. وعندما يشرح القران الكريم هذا المنظر يقول ﴿قَالَ اخْسَؤُا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٨). ذلك لأن الدنيا كانت هي محل وموضع كلامكم... كنتم تستطيعون التكلم هناك والوصول إلى الأنس بالله... لم تأنسوا بالله في الدنيا، واليوم لا يكون هو أنيسكم.

ب. **المحرومية من النظر الإلهي**

المنظر الثاني أو اللوحة الثانية هي لوحة "ولا ينظر إليهم" إذ لا ينظر الله تعالى إليهم نظرة الرحمة في ذلك اليوم الذي هم فيه في أشد الحاجة إلى نظرة عطف ورحمة. وبينما تشرق بعض الوجوه النضرة فرحاً وبشاشة، تعبس بعض الوجوه وتقتم، وهذه هي الوجوه التي لا ينظر الله تعالى إليها يوم القيامة. ويوم يُدعى كل إنسان باسمه ويصل كل إنسان إلى بَرّ النجاة... في هذا اليوم ما أتعس حال هؤلاء الذين لا يُنظر إليهم. إن الجلود لتقشعر من هول هذا المصير المفجع. لقد علمنا مدى الألم الفظيع لهذا الأمر من حادثة كعب بن مالك عندما قاطعه النبي ﷺ والمؤمنون لمدة قصيرة نوعاً ما، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم،[1] أما هؤلاء فسيستحقون هذا العقاب إلى أبد الآبدين... رُحْماك يارب! إن هذا لأفظع من عذاب جهنم... فما أفظع عاقبة من لا ينظر إليه الرب الرحيم ولو نظرة واحدة، وما أشد عذابه!

ماذا نستطيع أن نقول..؟ لا نستطيع إلا أن نقول بأن الإنسان سيجني ما زرعه، وسيلقى ما عمله... إن خيراً فخير... وإن شرّاً فشر.

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٧٩، تفسير سورة (٩) ١٤، ١٩؛ **مسلم**، التوبة، ٩

ج. **المحرومية من التزكية**

الوضع الثالث أو المحرومية الثالثة هي "ولا يزكيهم". عملية تزكية الإنسان، أي عملية تنظيفه وتطهيره من الذنوب تكون في الدنيا، لأن على الإنسان أن يذهب الى الآخرة وهو نظيف طاهر، أما في الآخرة فلا ينظف الإنسانَ سوى جهنم... لذا، فإن الله تعالى لا يزكيهم أيضاً.

إن للإنسان فرصة امتحان واحدة. فرصة واحدة يستطيع أن ينتهزها وينجح فيها نجاحاً باهراً. من استغل هذه الفرصة جيداً ربح وكسب، ومن أهملها خاب وخسر، فليس هناك احتمال ثالث.

إن الإنسان المسكين الذي تلوّث وتقرّح قلبه ووجدانه وروحه ومشاعره وجميع اللطائف الربانية الممنوحة له مثل تقرّح جسد النبي أيوب عليه السلام... هذا الإنسان المسكين سينظر إلى حاله يوم القيامة ويسائل نفسه: أأستطيع أن أطهر نفسي..؟ قد تبرق له بارقة أمل، غير أن الله تعالى لن يطهر هذه الزمر الثلاث.[1]

٢. العاقبة: عذاب أليم

والعاقبة هي «ولهم عذاب أليم...» فما أن يخطو هؤلاء خطوة واحدة حتى يجدوا العذاب الأليم أمامهم... عذاب يحرق النفس ويسري إلى جميع أوصال الإنسان، فلا يلبثوا أن يجدوا أنفسهم وقد انحدروا إلى هوة وادي العذاب. من هؤلاء الذين تنتظرهم مثل هذه العاقبة المرعبة؟ من هؤلاء الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم؟ ومن هؤلاء الذين أعد لهم هذا العذاب الأليم؟

---

(١) انظر: «**اللمعات**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص١٠

سيبلغ الفضول مداه لدى قارئ هذا الجزء من الحديث، وسينقلب كيانه كله ويتحول إلى كتلة من الاهتمام ليرى من هم هؤلاء الزمر الثلاث.

يستمر الرسول ﷺ في حديثه فيقول: "المسبِل إزارَه" وهذا كناية عن الغرور والكبرياء. لقد رأيتم ولا شك صور الرومانيين واليونانيين وهم يجرون أرديتهم وأثوابهم. ويمكن مشاهدة هذا بشكل أوضح في الأفلام المتعلقة بهؤلاء القوم. غير أن المهم هنا ليس في إسبال الإزار، بل جعل هذا الشيء رمزاً للغرور والكبرياء، فهذا هو القصد من الحديث.

٣. الغرور والكبرياء

تناولت العديد من الآيات والأحاديث الغرور والكبرياء وشرحت كيف أنهما من الأمراض السيئة التي تؤدي إلى عواقب وخيمة. فمن أحاديث الرسول ﷺ في هذا الخصوص قوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر.»[1] ذلك لأن الله تعالى قد سد طرق الهداية أمام من كان في قلبه ذرة من الكبر والغرور إذ قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ اٰيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ اٰيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِاٰيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

الكبر ستار يعمي العيون، والقلب الذي داخله الكبر لا يستطيع رؤية المعجزات التي يحفل بها الكون، ولا يدركها ولا يستطيع فهمها، ذلك لأنه عندما تعمى البصيرة فإن البصر الذي يأتي بمعنى الإدراك لا ينفع أبداً.

---

(١) **مسلم**، الإيمان، ١٤٩؛ **الترمذي**، البر والصلة، ٦١؛ **أبو داود**، اللباس، ٢٦؛ **ابن ماجه**، الزهد، ١٦

العظمة والكبرياء لله وحده. وهذه الحقيقة التي تتكرر خمس مرات فوق كل مئذنة في كل يوم كيف يمكن نسبتها إلى أحد آخر؟ يقول الله تعالى في حديث قدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار.»[1]

والكبر والكبرياء والعظمة صفة من صفات الله تعالى. فما يعنيه اللباس والرداء بالنسبة للإنسان يعنيه الكبر والكبرياء والعظمة لله، ولكن بصفة وكيفية لا نستطيع إدراكها. فالذي يريد مشاركة الله تعالى في واحدة من هاتين الصفتين وبخه الله وقذفه في جهنم. فالقلب المتكبر لا يجد الإيمانُ إليه سبيلا، وبتعبير آخر فإن القلب المشغول بغير الله لا يستطيع الإيمانُ أن يتربع فيه. فهذا هو وضع الشخص المتكبر المغرور، والحديث يصف مثل هذا الشخص بأنه الذي يجر ثوبه خيلاء.

٤. المنّان

الزمرة الثانية أو النوع الثاني من الناس هو "المنان". هذا الشخص أعطاه الله تعالى مالاً وملكاً لكي يستفيد من نعمه وينفق أيضاً على الآخرين فيجازيه الله تعالى مقابل هذا الإنفاق ألف ضعف. غير أن هذا الشخص غافل عن هذا الأمر... غافل ولاه... وإذا أنفق مرة فإنه يبطل هذا الإنفاق لقيامه بالمنّ على من أنفق عليه، وما علم أن هذا المال الذي أنفقه ملكٌ لله تعالى وهو عبد له. فكان من المفروض عليه القيام بإنفاق مال الله تعالى ولكننا نراه ينحرف إلى طريق المن وكأن المال ماله. فما أعظم هذه الغفلة وما أفظع هذا السقوط !

لقد أعطاه الله تعالى مالاً وملكا، وجعل للآخرين حقاً في هذا المال. فإذا به

---

(١) **مسلم**، البر والصلة، ١٣٦؛ **أبو داود**، اللباس، ٢٦؛ **ابن ماجه**، الزهد، ١٦

يبخل فلا يعطي، وإذا أعطى منّ على الناس بما أعطاه. وقد كان خيراً له أن يقول معروفاً وكلاماً طيباً بدلاً من القيام بإنفاق أو صدقة يتبعها بالأذى، والقرآن الكريم يقول ﴿قَولٌ مَعرُوفٌ وَمَغفِرَةٌ خَيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾(البقرة: ٢٦٣). والمنّان بخيل في الوقت نفسه، والبخل يبعد الإنسان عن الله وعن الجنة وعن الناس الآخرين ويقربه من جهنم. يقول الرسول ﷺ في حق البخيل: «البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار.»[1]

٥. الجزاء من جنس العمل

في هذا الحديث قاعدة من قواعد البلاغة، وهي قاعدة "اللفّ والنشر المرتّب"، ويستفاد منها ما يلي:

إن قوله "ولا ينظر إليهم" يقابل قوله "المنان"، وقوله "ولا يكلمهم" يقابل "المسبل إزاره"، وقوله "ولايزكيهم" يقابل "المنفق سلعته بالحلف الكاذب". ومن خلال تلك المقابلة نستطيع أن نستخرج النكتة التالية:

إن هذا المنان الذي لم ينظر إلى الناس نظرة رحمة في الدنيا و لم يهتم بهم، بل إنه كان يمن عليهم بعطائه إن أعطاهم شيئاً، ومن ثم أبطل حسنته بهذا المن سيلقى في الآخرة جزاء من جنس عمله، وسيعامله الله تعالى بنفس هذه المعاملة فلن ينظر إليه.

وذلك الذي يختال في مشيته ويجر إزاره المسبل بغرور ولا يكلم الناس إلا من طرف أنفه، عليه أن يعلم أن الله تعالى لن يكلمه يوم القيامة. ومن ثم

---

(١) **الترمذي**، البر، ٤٠

فليمسك عن هذا السير وعن المضي في هذا السبيل الخطر الذي يفضي بـــه إلى تلك العقوبة المرعبة.

ثم هذا الذي تعود أن يروّج سلعته بالحلف الكاذب لكي يجر من ورائهـــا منافع دنيوية أو يصرّف بضاعته مستهينا بهذا الحلف فإنه ينـــساق إلى عاقبـــة وخيمة حيث يتحقق في حقه وعيد "ولا يزكيهم". والرسول ﷺ رسم له هذه اللوحة بقوله "والمنفق سلعته بالحلف الكاذب". فهو يكذب في حياته التجارية لكي يربح ويجر نفعا دنيويّاً، وهو يرى بذلك أنه يستطيع غش الناس وخداعهم بالحلف الكاذب، فهؤلاء هم الزمر الثالثة المستحقة للعذاب.

فلننظر إلى جوامع كلم رسول الله ﷺ. نعم، فهذا القول دِيْن في أعناقنا عند قراءة كل حديث، لأن كل عبارة من عباراته تشير إلى أنه رســـول الله حقـــا وصدقا، اللّهم صل على سيدنا محمد بعدد أوراق الأشجار وأمـــواج البحـــار وقطرات الأمطار وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

م . **العفة وبلاء الألسنة**

في حديث صحيح يرويه الإمام البخاري والترمذي وأحمد يقول رســـول الله ﷺ. «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه[1] وما بين رجليه أضمن له الجنة.»[2] إن القائل هذا هو رسول الله ﷺ الذي يعرف معرفة أكيدة وأكثر من أي شخص ما يَضمن وما لا يضمن. فإن قال إنه يضمن الجنة كان هذا ضماناً أكيداً. ومما يدل علـــى ذلك ما جاء في رواية للبخاري عن امرأة عثمان بن مظعون عندما وقفت ترثـــي

(١) **لحييه**: فكيه، أو منبت لحيته. (المترجم)

(٢) **البخاري**، الرقاق، ٢٣، الحدود، ١٩؛ **الترمذي**، الزهد، ٦١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٣٣٣

زوجها فقالت: رحمة الله عليك أبا السائب. فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقالت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً.(١)

إذن، فعندما يضمن رسول الله ﷺ الجنة لمن يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه فإنه لم يضمن هذا عن هوى في نفسه، بل لا بد أن يكون هذا إخباراً من الله تعالى في هذا الموضوع، وأنه لم ينطق بذلك أبداً عن هوى، ولم يُنطقه الله تعالى حسب هوى نفسه بل صانه عن مثل هذا الأمر. إذن، فما قاله كان على الدوام حقا وحقيقة، ويتحقق ما قاله عندما يأتي أوانه دون ريب. فإن حفظت لسانك وحفظت ما بين رجليك وعشت عفيفاً فإنني أقول لك دون أي تردد بأن الزبانية إن ألقت القبض عليك يوم القيامة وأرادت سوقك إلى جهنم فإنك تستطيع أن تصرخ بكل ما أُوتيتُ من قوة بأن رسول الله كفيلك وضامنك، فلا تلبث أن تأتيك شفاعة رسول الله وتنجدك.

١. الكلام نعمة

لسان الإنسان عضو مهم، وله قيمة كبيرة لأنه مظهر لنعمة البيان، ولكن إن استعمل هذا العضو المبارك في السوء انقلب إلى أكثر الأعضاء ضرراً وفساداً وجرّ صاحبه إلى الهلاك. بهذا اللسان نفسه يسبح الإنسان ربه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتلو القرآن الكريم الترجمان الأزلي لكتاب الكون ويفسره للآخرين، ويقوم به أحياناً بهداية الملحدين إلى الإيمان فيكون قد حقق عملا أفضل من كل

(١) **البخاري**، الجنائز، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٣٦/٦

ما طلعت عليه الشمس وغربت، فيسمو بمثل هذا إلى أعلى عليين.

ولكن هذا الفم نفسه قد يُودِي بالإنسان إلى الهلاك أيضاً. فاللسان هو السبيل إلى جميع أنواع الكفر والضلالة. فالذين يشتمون الله ورسوله يفعلون هذا الشيء القبيح المقزز للنفس بألسنتهم، كما أن الكذب والغيبة والافتراء تكون باللسان فيسقط الإنسان إلى هوة الكذب التي سقط فيها مسيلمة الكذاب.

إذن، فرسول الله ﷺ يقول كلمة واحدة ويشير بالتحذير إلى عضو واحد فيطوي في كلمته هذه المعاني التي ذكرناها باختصار ومئات المعاني الأخرى. فكأنه يقول لنا استعملوا أفواهكم في سبيل الخير لكي أضمن دخولكم الجنة. ولا يقول لنا سُدّوا أفواهكم واقعدوا في زاوية، بل استعملوها في مجال الخير والمعروف.

٢. أدب الحديث

لا يصرّح الرسول ﷺ بذكر العورة بل يكني عنها بقوله "ما بين رجليه"؛ وهذا مظهر من مظاهر أدبه الرفيع. فقد كان دأبه هذا الأدب السامي والرفيع الخاص به حتى وهو يحدثنا عن أمور طبيعية وفطرية بل إنه عندما يتناول مواضيع غير محببة إلى النفس يصورها بصورة تبدو كلوحات محببة. لقد كانت نفسه مرآة لكل الأخلاق الرفيعة والسجايا السامية والجمال الدائم. فانظر مثلا إليه يتحدث عن عضو يخجل الناس من ذكره فيلمح إليه رسول الله ﷺ بأسلوبه الجميل فيقول: "ما بين رجليه"؛ نعم إن أثر الجميل جميل كذلك.

٣. ما بين رجليه

ما بين الرجلين مهم جداً. إذ كان وسيلة لخروج آدم من الجنة بعدما ذاق

الفاكهة المحرمة. ولأن شرح وتحليل الآيات حول إخراج آدم من الجنة خارج موضوعنا فإننا لن نتناوله هنا، إلا أننا سنكتفي هنا بإشارة موجزة إلى أهمية "ما بين الرجلين"، فبه بقاء النسل وحفظ النسب، كما يؤدي الزنا والفحش إلى خراب النسل، وذلك بسبب اختلاط الأنساب عند سوء استعماله وانهدام كل الأمور التي يجب على النظم القانونية حمايتها.

مَن أبُ مَن؟ من يترك ميراثه لمن؟ من يطالب بحقه من مَن؟ كيف يمكن صيانة العائلة والأمة؟ كل هذه الأسئلة وأشباهها مرتبطة بعفة ما بين الرجلين. فبينما يتمكن الأفراد العفيفون والمجتمعات المتكونة منهم من الحفاظ على بنيتهم الداخلية حتى يوم القيامة، لا يستطيع الأفراد الساقطون في مستنقع الزنا والفحش ولا المجتمعات المتكونة منهم من إبقاء وجودهم أكثر من نسل واحد.

وكما في المواضيع الأخرى فإن دائرة الحلال هنا أيضاً دائرة واسعة تكفي للنفس فلا حاجة للتوجه نحو الحرام إذ يمكن إشباع تلك الرغبة الموجودة في الإنسان بأفضل شكل في دائرة الحلال، لذلك يقول الرسول ﷺ: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[1]

فالرسول ﷺ سوف يباهي بأمته الأمم الأخرى، وستكثر أمته إلى درجة أن الأمم الأخرى ستبقى بجانبها شيئاً لا يذكر. وتكاثر أمته بهذه النسبة يرجع إلى ما بين الرجلين. فالذين لهم أنساب والذين لا يملكون أنساباً سيظهرون عن هذا الطريق، إذن، فما بين الرجلين منبت خصب يؤدي إلى هذين الضدين.

---

(١) «**فيض القدير**» للمناوي ٢٦٩/٣؛ «**كنز العمال**» للهندي ٢٧٦/١٦

والإنسان الذي يفتش عن الطريق الحلال في هذا الموضوع يكتسب ثـــواب القيام بالواجب. وعندما شرح النبي ﷺ هذا الأمر لأصحابه تعجبوا واندهشوا: كيف يمكن هذا؟ فتبسم النبي ﷺ وقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.»[1] ذلـــك لأن تـــرك الحرام واجب، إذن، فمباشرة المرأة عن طريق الحلال يكسب الإنسان ثـــواب القيام بالواجب.

وهذا موضوع قد يستحي من ذكره بعضهم مع أنه طريـــق ولجـــه حـــتى الأنبياء، فلو حُرِم آدم عليه السلام من هذه الرغبة فكيف إذن، كان ســـيأتي فخـــر الكائنات سيدنا محمد ﷺ إلى الوجود. إذن، فإن الغاية الأصـــيلة مـــن تلـــك الفاكهة المحرمة هي مجيء النبي ﷺ. وقد سمعتُ من أحد وُعَّاظِنـــا المتحمـــسين يقول: "لو علم آدم عليه السلام العلاقة الموجودة بين مدّ يده إلى تلك الفاكهة المحرمة ومجيء محمد ﷺ إلى الدنيا، لم يكتف بمد يده بل قلع تلك الشجرة بجذورها."

٤. الولاية العمودية

أرجو أن أسترعي انتباهكم هنا إلى موضوع مهم جدا، فالرســـول كمـــا ذكرنا قد ضمن الجنة لمن ضمن ما بين لحييه وما بين رجليه. ونحن نعرف قدر الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة، إذن، فهناك خارج هؤلاء أشخاص استطاعوا الوصول إلى الجنة بما حصلوا من مقام وقرب. وحصولهم على هـــذا يعـــني أن ضمان ما بين اللحيين وما بين الرجلين أمر صعب وغـــير ســـهل، ذلـــك لأن الشهوة عندما تسيطر على الجسم كله وتأخذ بزمام النفس وتمز الروح وتحـــل

(١) **مسلم**، الزكاة، ٥٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٦٧/٥، ١٦٨

الإرادة وتضعفها، عندها تكون نفس المرء مفتوحة لكل أنواع السوء. في مثل هذه اللحظة تكون السيطرة على النفس من أجل مخافة الله وفي سبيله مهمة جدا، إلى درجة أنها تكون وسيلة إلى السمو العمودي للإنسان. والذي يوفق إلى هذا يستحق دون شك ضمان رسول الله ﷺ له دخول الجنة.

أجل، إنني أقول بإصرار بأن من يستطيع لجم فوران نفسه وهيجانها وضبطها ومنعها من الولوج إلى الآثام ومقاومتها على الدوام بصبر لا ينفد.. مثل هذا الشخص قد يحصل في لحظة واحدة على فيوضات لا يحصل عليها شخص قضى سنوات من عمره في تكية، أو شخص يصلي كل ليلة مئات الركعات... يحصل على هذه الفيوضات وعلى رتبة عالية قد تصل إلى رتبة الولاية... ولا يذهبن بأحد الظن بأننا نهوِّن من شأن صلاة النوافل أو من صوم النوافل... فهذه النوافل وسائل مهمة في التقرب إلى الله وستبقى كذلك، إنما نريد التذكير بوسيلة أخرى تساعد على ارتفاع الإنسان نحو الكمالات.

لنفرض أن الله تعالى أودع فينا قوة خمسة أو عشرة أشخاص وجهَّزَنا بكل ما يلزم الإنسانَ للوصول إلى أوج الكمال الإنساني، ولكنه صاننا أيضاً من كل ما يؤدي إلى الإثم... ولكن المهم هنا هو قدرة الشخص على المحافظة على نفسه مع وجود الدوافع إلى الإثم في فطرته. أجل، فالمَثَل يقول "بحسب المغرم المغنم"، أي على حسب المشاق يكون الأجر والغنيمة. وكذلك بحسب المخاطر يكون العلو والسمو. فكلما زاد جو الخطر الذي تعمل فيه، وكلما تحملت مسؤولية في مجالات الخطر كلما زادت مكافأتك. لنوضح أكثر:

إن الله تعالى وضع مثلا بعض الصفات المضرة في فطرتك كالغضب والحقد

والنفور والشهوة.. الخ، ولكن إن لم تستطع أيٌّ من هذه الصفات المضرة أن تتحكم فيك في أيّ وقت، بل على العكس من ذلك كنتَ قادراً دوماً على التحكم فيها بإرادتك القوية، وعشت رجل إرادة وروح مؤدياً الفروض والسنن متبعاً طريق القلب والروح دون أن تتصيَّدك المظاهر البراقة الجذابة الداعية إلى طريق جهنم، كما استطعتَ تحمُّل مصاعب سلوك طريق الجنة، إذا بك تَرى نفسك وقد حشرت مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وأنا أعتقد بأن هذا هو السر في نظرة العطف لرسول الله ﷺ لهذه الجماعة المسلمة التي تمثل حركة البعث الإسلامي الجديد التي تعتصم بالإسلام وتتمسك به في مثل هذا العصر العاصف بالفتن والذي أصبحت فيه الأسواق والشوارع والميادين وكل المظاهر الاجتماعية الأخرى تموج بالفتن وتبتلع الإنسان وتذيبه في جوفها. لذا، فإن الشخص الذي يصر على أسنانه ويرفض أن يذوب في مثل هذا المجتمع ويحافظ على كيانه وعلى هويته يستحق أن يكون في معية الصحابة يوم القيامة. والصحابة هم رفقاء النبي ﷺ وأصدقاؤه، أما هؤلاء فإخوته، ذلك لأن النبي ﷺ قد اشتاق إلى هؤلاء الناس المؤمنين به والذين سيأتون بعده بعدة عصور وأرسل لهم سلامه وتحياته وأشواقه.[1]

أجل، فرسول الله ﷺ يخاطب إنسان جميع العصور ولاسيما إنسان هذا العصر ويقول لهم «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة»، وهذا القول موجه إلى الأشخاص المشتاقين إلى الجنة والمشتاقين إلى لقاء رسول

(١) **مسلم**، الطهارة، ٣٩؛ **النسائي**، الطهارة، ١١٠؛ **ابن ماجه**، الزهد، ٣٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٣٠٠

الله ﷺ أشد الشوق. وسيقوم هؤلاء -بإذن الله- بالتصرف بشكل ملائم وموافق لبشارة الرسول ﷺ وينجحوا فى هذا الأمر إن شاء الله.

وهكذا يشرح رسول الله ﷺ الطرق الموصلة إلى الجنة بأوجز وأبلغ عبارة ويرسم لوحة للفرد المثالي وللمجتمع المثالي. وإن حَشْد كل هذه الحقيقة الكبيرة في مثل هذه العبارة الوجيزة لا يمكن إيضاحه إلا بكونه ﷺ صاحب فطنة كبيرة. أجل، فهو سلطان الكلام، وكلامه كله من جوامع الكلم.

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط.»[1]

لنقف ونمعن النظر في عقد لآلىء هذا الحديث حسب قدرتنا. فالرسول ﷺ يبين الطرق التي تنقذ الإنسان من الأخطاء التي تؤدي به إلى أودية جهنم.

يقوم الرسول ﷺ بتنبيه مستمعيه من بدء كلامه باستعمال كلمة "ألا"؛ لأن الأمور التي سترِد في الحديث أمور تستوجب الانتباه. إذ أن تنفيذها يتطلب الانتباه واليقظة. فهناك تصرفات يستطيع الإنسان إتيانها حتى وهو نائم؛ فمثلاً يتجنب الإنسان الوقوع في إثم الزنى أو في إثم الغيبة لكونه نائماً. ولكن التصرفات التي نحن بصددها الآن أعمال تتطلب اليقظة، ولا يستطيع إتيانها إلا المتيقظون. لذا، تم إيراد كلمة "ألا" في بداية الحديث.

---

(١) **مسلم**، الطهارة، ٤١؛ **الترمذي**، الطهارة، ٣٩

وكلمة "الخطايا" تجلب انتباه المستمعين؛ لأن كل إنسان يخطئ، ومن يـــزعم أنه لا يخطئ فهو من أكبر المخطئين؛ فالعصمة وعدم الوقوع في الخطأ من صفات الأنبياء والنبي ﷺ يقول في حديثه: «كل بـــني آدم خطّـــاءٌ، وخـــير الخطـــائين التوابون.»[1] ولكن رسول الله ﷺ يريد أن يرشد الإنسان إلى حلول للخـــلاص من الأخطاء التي ستسوقه إلى أودية جهنم.

إن الخلاص من الأخطاء فحسب لا يكفي؛ لأن على الإنسان أن يرقى ويسمو درجات وأن يقطع بعض الأشواط في سبيل ذلك. إلا أننا يمكن أن نقول إن محـــو خطايا الإنسان يعد بذاته ارتفاعا؛ فإذا ما قام ببعض أعماله الأخرى قد يـــصل إلى شواهق أخرى. وهكذا فبهذه الأعمال الإيجابية يتقدم إلى الأمام على الدوام، وأنا أعتقد أن هذا هو معنى السير في درجات المعرفة الإلهية. وإن أول هذه الأعمال هو إسباغ الوضوء على المكاره وضوءاً تام الأركان والسنن دون عيوب أو قـــصور.. الوضوء في البرد وفي الشتاء وفي الثلج، وفي ظروف يبدو أن الوضوء فيهـــا غـــير ممكن. والثاني قضاء العمر في طريق المسجد.. مثل هذا العمر يكون مثـــل بـــذرة تتحول في الآخرة إلى شجرة باسقة ضخمة تعطي ثمار الجنة.. إذن، فهذا هو العمل الثاني: التوجه إلى المساجد البعيدة وعدم الانقطاع عن المساجد.

١- الهدف: الصلاة

والعمل الثالث هو انتظار الصلاة القادمة في شوق بعد الانتهاء من الصلاة، وهذا -كما جاء في حديث آخر- يعني تعلق القلب بالمسجد.[2] الصلاة هـــي

---

(١) **الترمذي**، القيامة، ٤٩؛ **ابن ماجه**، الزهد، ٣٠؛ **الدارمي**، الرقاق، ١٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٩٨/٣

(٢) **البخاري**، الأذان، ٣٦؛ **مسلم**، الزكاة، ٩١؛ **الترمذي**، الزهد، ٥٣

راحة الروح ونـــزهة القلب. إن لكل إنسان رغبة شديدة في شيء مـــا، أمـــا رغبة الرسول ﷺ الشديدة فقد كانت في الصلاة.[1] لذا، كان يقول لـــبلال: «يا بلال! أرحنا بالصلاة.»[2] ويشير إلى هذا بقوله: «وجُعل قُـــرّة عـــيني في الصلاة.»[3] وأنا أظن بأن الشوق الذي سيغمرنا ونحن ندخل الجنة هو الشوق الذي كان يحسه الرسول ﷺ في كل مرة وهو يقوم للصلاة، لذا فإنه كان بعد كل صلاة ينتظر الصلاة الأخرى بكل شوق.

مع أن هذا الحديث يتناول أمورا ثلاثة، إلا أننا إن دققنا النظـــر نجـــد أن جميعها تدور حول محور واحد هو الصلاة؛ فالصلاة عامـــل مهـــم في حيـــاة الإنسان، وهي معراج المؤمن، وهذه الصلاة التي تمتـــد وتـــسمو إلى مـــدارج المعارف أفضل منبِّه للإنسان للحقائق الإنسانية. الصلاة عماد الدين،[4] وهـــي التي تقود سفينة الدين؛ ولولا وجودها لما استطاع الدين البقاء طويلاً. وبما أن الصلاة عملية تنبيه، لذا، يجب أداؤها بحيث تؤدي وظيفة التنبيه هـــذه. فعلـــى الإنسان أن يصلي وقد أفرغ قلبه من أمور الدنيا ومشاغلها. ولهذا الـــسبب لا تقبل صلاة من يدافعه الأخبثان.[5] أجل، فعندما يكون عقل الإنسان مـــشغولاً بمثل هذه الأمور عليه ألا يقوم للصلاة؛ لأن عقل الإنسان يكون آنذاك مشغولاً بشيئين. وفي مثل هذه الأوضاع تضيع أمور كثيرة في معظم الأحيان، كما أن

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢/٢٧١

(٢) **أبو داود**، الأدب، ٧٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٣٦٤، ٣٧١

(٣) **النسائي**، عشرة النساء، ١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/١٩٩

(٤) «**كنـــز العمال**» للهندي ٧/٢٨٤

(٥) انظر: **ابن ماجه**، الطهارة، ١١٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥/٢٥٠

القيام للصلاة بهذه الكيفية يعد إهانة للصلاة. ذلك لأنها ليست من الأمور البسيطة التي يمكن أداؤها كيفما كان. فالصلاة موجودة لكي تقوم بإنارة حياتنا ولا يصح الخروج منها بسرعة وبأي شكل من الأشكال.

٢- التهيؤ للصلاة

من جهة أخرى فإن كل الترتيبات المتخذة لأداء صلاة بحضور قلب تكسب الإنسان الثواب، مثلها في ذلك مثل الصلاة. لذا، يجب على الإنسان أن يطرح عنه جميع مشاغله قبل أن يدخل ساحة العبادة، وأن يدخلها بشعور العبادة وحدها وأن يخلص نفسه من جميع المشاغل والمؤثرات الأخرى. في هذه الحالة يكتسب الإنسان في فترة الاستعداد للصلاة أجراً وثواباً، لأن نية هذا الإنسان كانت معقودة لأداء صلاة باطمئنان وحضور قلب، ونية المؤمن خير من عمله.[1] أليس من العجيب أن الآخرين عندما يذهبون للخلاء يقومون فقط بدفع حاجة طبيعية، بينما المؤمن عندما يذهب إلى الخلاء وهو يتهيأ للوضوء وللصلاة فإنه عندما يدفع حاجته يؤجر على ذلك أيضاً.

والحقيقة أن دفع الحاجة ثم التوضؤ لأداء الصلاة أمور مهمة لتهيئة الإنسان روحيا للصلاة. ومهما قيل في تفسير التهيؤ للصلاة بالوضوء من أن الوضوء يعادل الكهربائية الستاتيكية المتراكمة في الجسم في أثناء غسل ودلك الأعضاء، أو أي تفسير آخر فإن النتيجة لا تتغير. وفي الواقع فإن المؤمن عندما يتوضأ لا يخطر بباله مثل هذه الحكم أو التفاسير. فهو يفكر فقط في السبب الذي يتوضأ من أجله وهو الصلاة. والتهيؤ للوضوء هو التنبيه الأول، أما الوضوء فهو التنبيه الثاني وسماع

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١/٦١، ١٠٩

الأذان هو التنبيه الثالث للصلاة. والحقيقة أنه في أثناء الوضوء، وفى ختامه يسنّ له الشرب من ماء الوضوء وقراءة بعض الأدعية؛ وهذا كله يدفعه إلى عالم مـــا وراء الطبيعة، فإذا أتبع هذا بصلاة السنة فإنه يكون قد تهيأ تماماً لصلاة الفرض.

أجل، كل شيء فى جو الصلاة يذكرنا بالصلاة بدءاً من الأذان المرتفع من فوق المآذن الذي يمس قلوبنا ويذكرنا بعظمة الله.. فنقوم ونسرع إلى المـــسجد تلبية لنداء الأذان، وعندما تنتهي آخر كلمة في الأذان نحـــس وكـــأن قلوبنـــا وأرواحنا قد ذابت معها، ثم نذهب إلى المسجد ونصلي النافلة، وهي بمثابة فتح أبواب صلاة الفرض.. ذلك لأننا نتوجه إلى الله في صلاة النافلة وكأن كل فرد منا يقول لله تعالى: يا رب!. إنني أريد أن أتوجه إليك وحدك.. أن أجد مثيـــل ما أبحث عنه... أن أراك وأن أسمعك.. وأن أعيش بك وحدك، ذلك لأن النظر إلى ما سواك، ومشاهدة غيرك والانشغال بسواك جهد ضائع وعمل خاســـر، بينما أرغب أن أبتعد عن الأمور الفارغة وأتوجه إلى الأمور المهمة المثمرة.

وهكذا فإن صلاة النافلة تكون وسيلة مهمة في الاقتراب مـــن بـــاب الله والتهيؤ لصلاة الفرض بوعي كامل وتركيز كاف. الوضـــوء يـــؤدي دوره.. والأذان كذلك.. والخطوة الثالثة التي تؤديها هي صلاة النافلة.. في هذه الأثناء يقوم مؤذن جميل الصوت متوجها إلى الله ويقيم الصلاة.. هنا يكون الانفعـــال قد بلغ مداه واشتعلت العواطف والتهبت المشاعر. إن لم تلتهب هنا العواطف؛ ولم يتم التوجه الكامل لله تعالى ولم يحن الإنسان إلى محرابه فمعـــنى ذلـــك أن هناك نقصاً ما في مكان ما. عندما تتم الإقامة يكون المؤذن قد أنـــزل الضربة الأخيرة على كل ما يشغل الإنسان عن الله فيدخل العبد إلى الصلاة بقول: "الله

أكبر" في مثل هذا الجو وبهذه النية، ويكرر هذا القول وهو يركع وهو يسجد فيعلن في كل ركوع وفي كل سجود عظمة خالقه: يا رب..! أنت كبير عظيم الشأن وأنا ضعيف عاجز. أي يقف أمامه وقفة العبد المعترف بعبوديته وبضعفه. فيصل إلى لب العبودية وجوهرها.

يصل الإنسان في الصلاة إلى الله.. يصل إلى درجة أنه يوجه التحية إلى الله تعالى مباشرة.. هذه التحية التي وجهها الرسول ﷺ إلى الله تعالى في أثناء المعراج.

٣- محو الخطايا

عندما يذكر الحديث الشريف إزالة الخطايا يقول "يمحو الله". وكلمة "يمحو" تستعمل في إزالة شيء مكتوب. إذن، فالخطأ أو الخطيئة موجودة في الطبيعة البشرية بشكل نواة. والإنسان يستطيع أن يسقي هذه البذرة وينميها إن أراد، أو لا يعطي الفرصة لها لمثل هذا النماء. وعندما يقوم الإنسان باتباع وصايا الرسول ﷺ يمحو الله الخطايا ويحوّل قابلية الشر إلى قابلية خير. والآية الكريمة ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(الرعد: ٣٩) تشير إلى هذه الحقيقة. فهناك استعداد في الإنسان لمقارفة الخطأ؛ لأن طبيعة فيه لا يمكن فصلها عنه؛ وهذه صفة مهمة في الإنسان، لذا فإن التوجه والاهتمام بتطهير النفس شيء يهم كل إنسان.

يمكن أن يقع كل إنسان في الخطأ، وقد يقضي حياته وهو منحرف عن الطريق القويم، غير أن الفرصة موجودة دائماً أمام الإنسان لكي يصلح هذه الأخطاء ويمحوها، وأن يرتفع في الدرجات العلى للخير. وإحدى الطرق الموجودة لتحقيق هذا هي الوضوء مهما كانت الظروف صعبة، والطريق الثاني

هو السعي بشوق إلى المساجد وتعلق قلبه بها، وعقد النيـــة علـــى الرجـــوع للمسجد وهو يغادره. والطريق الثالث انتظار الصلاة بعد الصلاة.. هذه الطرق تؤدي إلى محو الخطايا من ناحية وإلى رفع الإنسان في مدارج الخير والكمال من ناحير أخرى.

٤- الرباط

وصف رسول الله ﷺ هذه الأعمال بكلمة "الرباط" وكرر هذه الكلمة ثلاث مرات، وكما تطلق كلمة الرباط على كل نوع من أنواع البركة الفياضة الماديـــة منها والمعنوية، فإنها تأتي بمعنى الحذر والانتباه لكل نوع من أنواع البلايا والمصائب، كما تطلق على ارتباط المرء بعمل ما أو نذر نفسه له. لذا، أطلقت كلمة "المرابط" على الجندي الذي يحرس مواضع خطرة ينذر نفسه لمثل هذه الحراسة.

وتشير الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُـــوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) إلى هذه المرابطة وتـــأمر بهـــا. وفي آيـــة أخرى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيلِ﴾ (الأنفال: ٦٠) يأتي معنى الرباط من زاوية أخرى. وبما أن الرباط يأتي بمعنى حصر المرء نفسه لوظيفة ما ونذر نفسه لها، فإن الوظيفة المقصودة في الحديث هي الوضوء والرواح والغدو بين البيت والمسجد، وتعلق قلبه بالمسجد حتى وهو في بيته أو في وظيفته.. فـــإنْ عمل هذا فمعنى ذلك أنه نذر نفسه لله.

وعبارة رسول ﷺ تفتح هنا باباً في الجناس إذ يقول: إن الرباط في الأصـــل يطلق على قيام الجنود في نقاط الحدود بنذر أنفسهم للدفاع عن بلدهم ضـــد الأعداء. فكما أن التهيؤ ضد الأعداء وحشد الحشود لهم في الأماكن التي يخشى

دخول الأعداء منها يعد رباطا، كذلك فإن هناك معركة بين الإنسان وبين الشيطان والنفس، أي بينه وبين أعدائه، وتعد هذه المعركة من بعض الوجوه جهادا أكبر من ذلك الجهاد. والإنسان مكلف للقيام بكلا هذين الجهادين، أحدهما هو "الجهاد الأصغر" والآخر هو "الجهاد الأكبر"، وعندما يشتبك الإنسان في معركة مع أعدائه فإنه لا يجد فرصة لكي يفكر في أهواء نفسه، لذا فهناك احتمال ضئيل جداً أن ينهزم مثل هذا الشخص أمام نوازع جسده، ذلك لأن نفسه أصبحت مشغولة ومملوءة بفكرة الجهاد. ولكن ما إن يدع نفسه للراحة وللتراخي حتى تبدأ الأهواء بمهاجمة نفسه ويزداد احتمال التفافها حول روحه؛ لذا، فعليه بمراقبة نفسه وصيانتها جيدا، وهذا جهاد أيضا، وأهم سلاح مستعمل في هذا الجهاد هو الصلاة. والجهاد يكون تارة فرض كفاية وتارة فرض عين. وهناك مشابهة بين الجهاد المادي والجهاد الداخلي من ناحية فرضيتهما، لذا قال رسول الله ﷺ وهو راجع من إحدى المعارك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.»[1]

إن تعلق قلب المرء بالمساجد، أي كونه مشغولاً بالصلاة -أو حسب الفهم النبوي الارتباط بالصلاة ارتباط عشق وشهوة وأن تكون الصلاة قرة عينه- فإن هذا يعادل عمل الفرد المرابط على جبهة القتال. إن أردنا إيراد خلاصة لملاحظاتنا حول هذا الحديث نقول: هناك ثلاثة أعمال يتعلق إثنان منهما بالتصرف ويتعلق الثالث بالنية بحيث تحيط هذه الأعمال بفكر الإنسان وأحاسيسه، لذا فحسب القاعدة الكريمة والمليئة بالبشارة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤) فهي

(١) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ١/٤٢٤

تطهر الإنسان من آثامه الماضية وتجهزه بوجد العبادة وبالارتباط بالله تعالى والنيـــة الصالحة لكي يستطيع مواجهة أخطاء المستقبل وذنوبه.

الأول: عندما تكون الظروف الجوية غير مساعدة لوضوء سهل ومـــريح، كأن يكون الجو بارداً والماء باردا، أو لا يكون متيسراً بل نادراً بحيث يـــصعب استعماله للوضوء -طبعاً إن استثنينا الحالات الضرورية والمتعلقة بالحياة- عنـــد الأشخاص العاديين، عندما يتوضأ الإنسان في مثل هذه الظروف الصعبة فـــإن هذا يكون مؤشراً على عمق إخلاص ذلك المرء وشدة ارتباطه بـــالله، وعلـــى رغبة عميقة عنده لنيل الثواب وشوق كبير لأداء وظيفة العبودية حـــتى عنـــد أصعب الظرورف؛ والقاسم المشترك هنا هو الارتباط بالله تعالى. في مثل هـــذه الظروف عندما تمس بعض الذنوب مثل هذه القلوب فإنها لن تثبت فيها. أمـــا المواضيع الأخرى المتعقلة بالوضوء كقيامه مثلا بتأمين التوازن الكهربـــائي.. أو مساعدته للإنسان للتغلب على توتره النفسي، أو تجدد الإنسان روحياً خمـــس مرات في اليوم فلن نتناولها هنا -مع أننا نسلِّم بها- لأنها خارج موضوعنا.

الثاني: أن الصلاة نوع من المعراج.. وأن التعود على التوجه للمساجد هو توجه لله تعالى وتمرين للبدن ومحافظة على نشاطه وحيويته.. وجيشان الـــروح جيشاناً يجاوز إدراك العقل، وولوج القلب إلى جو الصلاة قبل الصلاة وتأمينها للتركيز الواجب الوصول إليه قبل المثول بين يدي الله، وسلوك هـــذا الطريـــق الذي رمز إليه رسول الله ﷺ بكلمة "كثرة الخطا".. ســـلوك هـــذا الطريـــق والتحول فيه والتغير فيه والتطهر فيه من الذنوب السابقة السوداء بمشاعر الندم الصادقة، وبالبكاء والأنين لكي تصبح صحيفته بيضاء ناصعة، ويدخل في دائرة

صلاح يكون فيها الخير وسيلة لخير آخر وهو ضد الدائرة المفرغة. والذي يعزم على السياحة في هذه الدائرة يكون مَظهراً للآية الكريمة التي تمثل الوفاء ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ (الفتح: ٢) من ناحية ماضيه، ثم يُدخله إلى حصن حصين بقوله "وما تأخر" من ناحية مستقبله. لذا، فإن الأعين شاخصة دائماً في كل منزل من منازل هذه السياحة إلى "يمحو الله به الخطايا" وتهفو القلوب إلى "ويرفع به الدرجات"

الثالث: أن انتظار الإنسان أوقات الصلاة بلهفة تَقرُب من لهفة العاشق إلى الوصال، وتنظيم أوقات حياته ونشاطه حسب أوقات الصلاة مفهوم خاص للزمان يستطيع به الإنسان أن يملأ الفراغات الموجودة بين مختلف أوقات أعماله، وينقل الهدوء والاطمئنان والارتباط بالله تعالى الموجود في الصلاة إلى خارج أوقاتها، ويربط كل مشاغله الدنيوية بالله تعالى فيحول كل هذه المشاغل إلى عبادة، فتتحول العبادة المحدودة إلى عبادة غير محدودة فيكون أداء الصلاة بروح الانتظار عنوان ارتباط العبد بربه وبمثابة الجهاد المادي والمعنوي المعبر عنه بكلمة "الرباط".

وهذا الحديث الذي يقدم مقطعاً عميق المعنى من الحياة النيرة للمؤمن، هذا المقطع الذي يتزين بالوضوء ويرتفع في الصلاة إلى السماء... هذا الحديث مثال للحديث الموجز ذي الدلالات العميقة الشاملة. وبدلاً من إطالة الحديث أود الانتقال إلى بيان نبوي مضيء آخر. وهو في هذه المرة حديث قدسي. والأحاديث القدسية كما هي معروفة من قبل الجميع هي الأحاديث التي تكون معانيها من الله وأسلوبها من قبل الرسول ﷺ ومروية عن الله تعالى من قبل الرسول ﷺ.

س . مفاجآت للعباد الصالحين

يقول الله تعالى في هذا الحديث القدسي الذي يرويه البخاري ومسلم:

«أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر.»[1] يتناول الحديث أخبار مفاجأة، إذ يفاجأ الإنسان هناك بمفاجآت لم تخطر على باله وفي أوقات لم يتوقعها. صحيح أن القرآن تحدث عن بعض نعم الجنة. إلا أنها ليست سوى خطوط عريضة وعناوين وإشارات، وإلا فإن من المستحيل فهم حقيقة هذه النعم في الدنيا. يقول ابن عباس في تفسيره لآية ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ (البقرة: ٢٥) "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" وفي رواية أخرى: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء."[2] فعندما تذوقون نعمة هناك ستقولون "إنها تشبه الشيء الفلاني" ولكنها ليست أبداً ذلك الشيء . ذلك لأن نعم الجنة –مثلها في ذلك مثل الجنة– مخلوقة لكي تكون متلائمة ومتوافقة مع الحياة الأبدية والخالدة. لذا، فإن من السذاجة أن نتوقع هناك رؤية البطيخ أو التفاح... الخ من فواكه هذه الدنيا.

الجنة هي دنيا المفاجآت، تندهش فيها العقول وتحار فيها الأنظار وتنتشي فيها القلوب وتثمل فيها النفوس، حتى يكاد الإنسان يحتار ماذا يفعل أمام كل هذه النعم، لأن الجنة معرض للنعم المتنوعة المتسلسلة والمتعاقبة للحياة الأخروية. ثم إن رؤية جمال الله تعالى –التي لا تعادل فرحتها فرحة آلاف من سنين الجنة– هي من مفآجات الجنة. أي أن المؤمنين بعد دخولهم الجنة سيرون هناك ربهم وإلا فإن الله

---

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣٥؛ **مسلم**، الجنة، ٤–٥

(٢) «**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير ٩١/١

تعالى منـــزه عن الزمان وعن المكان حتى ولو كان المكان والزمان مكـــان الجنـــة وزمانها. أجل، فقد هُيِّئَت مفاجأة مشاهدة جمال الله تعالى للعباد الصالحين في الجنة.

و"الصالح" معناه الشخص الذي يعمل عملاً لا عيب فيه ولا قـــصور ولا خلل، أما "الصالحات" فهي الأعمال التي عملت دون عيب أو قصور أو خلل. ولا يمكن تعيين عما إذا كانت أعمال معينة تعد من الـــصالحات إلا بقياســـها بالقسطاس الإلهي. أي أننا نعلم وحسب المقاييس الإلهية كيف تؤدى الـــصلاة ويتم الصوم وتؤدى الزكاة ويتم الجهاد وكيف تتم المراقبة والعـــالم الـــداخلي للإنسان ويُهَذَّب الضمير وتثار الـــروح وتقـــوى الإرادة وتنمـــى العواطـــف والمشاعر. إننا نعلم كل هذه الكيفيات بعرض هذه الأعمال على المقياس الإلهي لنستطيع تقييمها. وبهذا الاعتبار يجب على الإنسان تعيير نفسه حسب البيـــان الإلهي وبالشكل الذي يستطيع به الحصول على مرضاة الله تعالى، فيكون بذلك قد خطا الخطوة الأولى في عمل الصالحات.

أجل، فكما يقوم الموسيقيّ قبل العزف بتعيير آلاته الموسيقية، كذلك يجب عليكم إن أردتم الحصول على مرضاة الله أن تضبطوا أنفسكم حسب القرآن، وإلا لا ينظر إلى وجوهكم. أجل، إن الله تعالى سميع وبصير. يسمع كل صوت ويرى كل شيء، ولكن إن كان صوتكم غير ملائـــم للمقـــام الالهـــي فلـــن يسمعكم، وتكونوا قد فشلتم في إيصال صوتكم.

والصالحات في معنى آخر، هي الأعمال التي تؤدى بكل عناية وبكل دقـــة. وذلك بناء على معرفة القائم بهذه الأعمال أن الله تعالى يراقب عمله ويلاحظه. إذن، فعلى الإنسان أن يؤدي كل الأعمال الخيرة التي يقابلها بعناية ودقة. ذلك

لأنه لا يعلم أحدٌ أيَّ عمل من أعماله سيكون وسيلة لإنقاذه، لذا نرى رسول الله ﷺ يقول: «اتق الله ولا تَحْقِرَنّ من المعروف شيئاً.»[1] وفي الحديث القدسي الذي نحن بصدده ترد عبارة "لعبادي الصالحين"، ومن ثم فإن أصحاب الأعمال الصالحة لهم قربتهم من الله تعال التي جعلتهم عباداً محبوبين من قبله تعالى. وفي حديث قدسي آخر يشرح موقف الذي يحبه الله تعالى: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمع به وبصره الذي يُبصِر به ويده التي يبطش بها ورِجْله التي يمشي بها.»[2]

أي إن العبد يكتسب بأعماله الصالحة قرباً من الله تعالى بحيث ينصبغ بصبغته ويصبح الله تعالى هو المحرك له.. أي يصبح كالميت في يد المغسل يحركه كيفما يشاء، فما ألذ هذا الإجبار الذي يتم من قِبل الرب الذي يدفعه إلى طريق الخير. ومثل هذا الشخص يستحيل عليه أن يعرض عن الله، ذلك لأنه أحرز مرتبة كبيرة بحيث يقول الله عنه "لعبادي" أي يصفه بالعبودية له، فقد وصل إلى درجة المقربين. ومثل هذا الشخص يقول ضارعاً: "خذ بيدي يا رب! خذ بيدي، فإنني لا أستغني عنك."

مثل هذا الشخص يعمل كل ما هو جميل، وفي كل عمل يعمله يبحث عن وسيلة لخلاصه، وبما أنه لا يعلم أي عمل صالح سينقذه، فإنه لا يدع أي عمل خير يفلت من يده، وكل هذه الأعمال ستكون بمثابة صندوق مفاجآت له،

---

(١) **مسلم**، البر والصلة، ٤٣؛ **أبو داود**، اللباس، ٢٥؛ **الترمذي**، الأطعمة، ٣٠؛ وانظر: «**فيض القدير**» للمناوي ١٢١/١؛ «**كنز العمال**» للهندي ٥٧٦/٦

(٢) **البخاري**، الرقاق، ٣٨

وعندما يدخل الجنة يوم القيامة تفتح هذه الصناديق أمامه واحداً إثر آخر فـــيرى مفاجآت لـــم تـــرهـــا عين ولا تســـمع بها أذن.

أحياناً يكون حتى إرواء كلب سبباً في دخول الجنة[1] وأحيانا يكون حبس قطة حتى الموت سبباً في دخول جهنم.[2] فإذا أخذنا هذه الحقائق بنظر الاعتبار علمنا أن الجنة وما يعطى فيها إنما هي مفاجأة على الدوام. ثم إن الإنـــسان لا يمكنه إدراك إلا ما يستطيع مشاهدته أو سماعه أو ما يستطيع تصوره. ولكـــن الإنسان لكونه محدوداً فإن أحاسيسه هذه محدودة أيضا، ومن ثم فإنه لا يستطيع بحواسه المحدودة هذه إلا إدراك الأمور والأشياء المحدودة. أي إنه لا يـــستطيع إدراك ومعرفة النعم الموجودة في عالم لا نهائي بأحاسيسه القاصرة والمحـــدودة هذه. يقول الشاعر ضياء باشا:

"لا يمكن لهذا العقل الصغير إدراكُ المعاني العالية

ذلك لأن هذا الميزان لا يستطيع وزن هذا الثقل"

وقد يكون أحد التوجيهات ما يأتي: يضاعف الله تعالى أجر الأعمال الصالحة، فيعطي أحياناً عشرة أضعاف وأحياناً مائة أوسبعمائة أو ألفاً أو مائة ألف أو مليوناً وأحياناً بعدد لا يعد ولا يحصى. وليس هناك من عبد يعرف بالضبط نوعية المكافأة المعطاة له، لذا فإنه عندما يجازى بمكافآت هي أضعاف أضعاف عمله بشكل يفوق التصور يوم القيامة يكون ذلك مفاجأة كبرى لم تخطر بباله قط.

---

(١) **البخاري**، الأنبياء، ٥٤؛ **مسلم**، السلام، ١٥٣، ١٥٤

(٢) **البخاري**، المساقاة، ٩؛ **مسلم**، السلام، ١٥١؛ **الدارمي**، الرقاق، ٩٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٠٧/٢

ورسول الله ﷺ يخبرنا بهذه الحقائق العميقة بكلمات قليلة وبشكل فوري ودون تفكير مسبق ودون تهيئة مسبقة وبشكل ارتجالي. هذا الكلام فقط يكفي لإثبات كيف أنه كان صاحب فطنة كبيرة تفوق الإدراك البشري. ولأننا مفتونون بكلامه ﷺ لذا، لا نملك أنفسنا من الإشارة إلى بعض أحاديثه الأخرى.

ء . الجنة محفوفة بالمكاره، والنار بالشهوات

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله مسلم والبخاري: «حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات.»[1] جهنم محفوفة بالشهوات وبالأهواء وبالأجواء التي تماشي رغبات النفس، أما الجنة فهي محفوفة -حسب المنطق الظاهري للعقل- بالمكاره وبالصعوبات. والذين يرون كل شيء في المادة ويفسرون كل شيء بالمادة يتوهمون أن الذين يسلكون الطرق الواصلة إلى الجنة لا يتصرفون تصرفاً جيداً.

والحقيقة أن كلا من الجنة وجهنم تعدان نعمة لنا.. ففي عملية سلوك الطريق تقوم الجنة بتشويقنا لسلوك الطريق المستقيم وتقوم جهنم بتحذيرنا من سلوك الطريق المعوج. فكلما نظرنا إلى الوجه المشرق للجنة اشتقنا للوصول إليها، وكلما تطلعنا إلى الوجه المرعب لجهنم بذلنا جهودنا لمنع أنفسنا من الوقوع في هاويتها فنتشبث بالجنة ونتمسك بها، وهكذا يكون كلاهما رحمة لنا. غير أن الله تعالى عرض علينا الجنة وجهنم كمتاع، وقدمهما في سوق العمل، والإنسان بالإرادة المعطاة له يستطيع أن يختار أحد هذين المتاعين، فمن استعمل إرادته اختار الجنة وكان من السعداء، ومن أراد اختيار جهنم سلك طريقها وكان من الأشقياء.

---

(١) **البخاري**، الرقاق، ٢٨؛ **مسلم**، الجنة، ١

أجل، إن جهنم محفوفة من كل جوانبها بجو من الشهوات، ويبدو هذا الجـــو من الخارج في منظر جذاب فيه كل شيء: الطعام والشراب والنوم وكل شهوات النفس وكل ما يشبع رغبات الجسد، وتحيط هذه الشهوات وهذه الرغبات بجهنم إحاطة السوار بالمعصم. والخلاصة أن طريق جهنم طريق كل أنـــواع الرغبـــات والشهوات النفسية والجسدية.

أما الجنة فهي لؤلؤة محاطة بصدفة من المكاره.. الوضوء وأداء الصلاة والذهاب إلى الحج وإيتاء الزكاة والجهاد ومواجهة المتاعب والمصاعب في ســـبيل الله، وأن يعامل الإنسان معاملة الأسير في وطنه، ويجرد من كل حقوقه الإنسانية وينقل من سجن إلى سجن، ويعرض للإيذاء وكل صنوف التعذيب دون أن يكون له ذنـــب سوى قوله "ربي الله"، ونفيه من وطنه بل حتى تعرضه لحكم الإعـــدام.. الخ مـــن المكاره والمصاعب التي يتعرض لها، والتي تبدو للعقل الظاهري أموراً كريهة وصعبة على النفس. أجل، فالمكاره والمصاعب هي التي تحيط بالجنة وتسترها بـــستارها. والذين ينظرون من الخارج لا يرون إلا هذه الأستار. وطبقا لهذه الأستار فإن جهنم تبدو مدغدغة لشهوات النفس، والجنة تبدو مفزعة. وهذا هو السبب في أن معظم الناس خدعوا بهذه المظاهر الخارجية لأنهم اكتفوا بمطالعة الوجه الخارجي لهما. لذا، كان طالبو جهنم كُثُراً وطالبو الجنة قلة.

يركض أكثر الناس وراء الحسابات القصيرة الأمد. فهذا الذي يقول "نعـــم إن الصلاة شيء جميل، ولكن أداءها خمس مرات في اليوم يبدو لي أمرا صعبا" قد قصر نظره على المشقة القليلة الموجودة في الصلاة. وكما أن صعوبة الوضوء في أيام الشتاء أصبحت سبباً عائقاً أمام البعض، غير أن هذا الوضوء أصبح سبباً

لتقريب الجنة إلى الذين تحملوا مشقته القليلة خطوة فخطوة. ويمكن إيراد الشيء نفسه بالنسبة للصوم والزكاة والحج والجهاد ولكن ما أكثر من منعتهم عقولهم من التصرف بعقلانية فتعثروا بهذه العقبات الصغيرة و لم يستطيعوا القفز فوقها فأصبحت المكاره المحيطة بالجنة حائلاً بينهم وبينها.

أما جهنم فتشبه الساحرة الشريرة التي وضعت الشهوات البسيطة مصائد للناس يهرعون إليها وهم لا يعلمون أنها خطر مميت، فهم مثل الذباب الذي يهرع إلى العسل فيكون فيه مهلكه... أجل، فالشهوة عندهم عسل سام. أو يمكن أن نشبه هؤلاء بالفراشات التي تحوم حول النار فتحترق فيها وكذلك يجد هؤلاء أنفسهم في جهنم، عندما يقبلون نحو الشهوات المحيطة بها. ذلك لأنهم لا يرون ما وراء هذه الشهوات التي تشكل ستاراً حول جهنم فيقبلون عليها مستجيبين لدواعي رغبات أجسادهم.[1]

أما الذين تعرفوا على رسول ﷺ في مفترق الطرق وسلكوا في حياتهم طريقهم حسب إرشاده ﷺ والذين تفتحت قلوبهم للحقائق فإنهم لا ينخدعون أبداً بمظاهر المكاره المحيطة بالطرق الموصلة إلى الجنة بل يعرفون حقيقتها. ذلك لأن الجنة موجودة في قلوبهم بذرة تنمو شيئاً فشيئاً حتى تستولي على عوالم أرواحهم. وبينما يبحث الآخرون عن الجنة في الخارج يسعد هؤلاء بالجنة الموجودة في قلوبهم، بينما لا يستطيع الذين يعيشون جنتهم المادية في الحياة الدنيا أن يعيشوا طوال حياتهم دقيقة واحدة من السعادة التي يشعر بها هؤلاء

(١) يشرح لنا ﷺ هذا الموضوع بالتشبيه التالي: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نَاراً فَجَعَلَتِ الدَّوَابّ وَالفرَاشُ يَقَعنَ فيه، فأنا آخذُ بحُجَزِكمْ وأنتم تقحمون فيه.» (**البخاري**، الرقاق، ٢٦؛ **مسلم**، الفضائل، ١٨؛ **الترمذي**، الأدب، ٨٢).

الذين يضمون الجنة بين جوانح قلوبهم. "الإيمان بَذْرة تحمِل الجنة في داخلـــها، والكفر بذرة أخرى تحمل جهنم في داخلها. وهاتان البذرتان بعد نموهما تنقلبان في الآخرة إلى جنة وإلى جهنم حقيقيتين؛ لأن المؤمن يعيش حياة الجنة حتى وهو في الدنيا ولكن الشكل الظاهري لحياته يبدو وكأنه محاط بالمكاره والمصاعب."

إن الأرواح التي تخفق شوقاً إلى الجنة عندما تسير في طريق الجنة وتقطع هـــذه المنازل –هذه المنازل التي تعد كل واحدة منها سعادة خاصة– ستواجه بما تكرهـــه النفس والجسد –رغم الروح– من أداء العبادات البدنية كالوضوء والصلاة والصوم والحج، والتكاليف الصعبة الأخرى مثل الزكاة والصدقة وغيرهما من الكلف المالية أو الكلف المادية والبدنية كالحج والجهاد.. هذه التكاليف والأعباء قد تجعل طريق الجنة لبعضهم طريقاً يصعب سلوكه. فبعضهم يشق عليـــه الوضـــوء والـــصلاة، وبعضهم يشق عليه الجوع والعطش في الصوم، وبعضهم يؤثر عليه حـــب المـــال والنفس، وبعضهم بمجموع بعض هذه الصعوبات أو كلها فلا يصلوا إلى الجنـــة بكل مباهجها وزينتها وروعتها وهي على بُعد بضع خطوات منهم.

أجل، فكما أن الجنة عالم للسعادة التي لا يستطيع العقل تصورها ولا بلوغهـــا حتى في الأحلام إلا أن طريقها مملوء بالمكاره والمشقات والصعاب والمـــسؤوليات، وكذلك جهنم هي بئر غائرة وواد مهلك ولكن طريقها مملوء بالشهوات الجسدية والأهواء النفسية والرغبات الدنيوية التي تسترعي إليها الأنظار وتسحر بها الأرواح الضعيفة وتجذب إلى مركزها مثل ثقب أسود كل من يمر بالقرب من ساحتها بقوة عنيفة. ما أكثر من تسحرهم أستار جهنم الكاذبة فيتركون أنفـــسهم لتـــهوي في أوديتها، كما تخيفهم المصاعب التي تبدو في أستار الجنة فينكصون على أعقـــابهم

ويخسرون السعادة الأبدية. أجل، فكيف يوجد من يعرف الجنة ولا يشتاق ويسعى إليها، ومن يعرف جهنم ولا يجتهد في الابتعاد عنها، ولكن سر التكليف والإيمان بالغيب والامتحان في الدنيا اقتضى كل ذلك أن تضع الجنة على وجهها قناع الصعوبة والمشقة والمكاره وأن تلبس جهنم فستاناً من الشهوات والرغبات.

ولكن انظر هنا إلىهذا السحر وتلك القوة في كلام رسول الله ﷺ الذي وصف محتويات وحقيقة هذين الطريقين الطويلين العظيمين بكل الانشراح والسعادة الموجودة في أحدهما، والمخاطر والمخاوف الموجودة في الآخر بأسلوب راعى فيه منتهى الإيجاز كعادته دائماً، فاستعمل في شرح هذا الأمر العظيم بضعة كلمات. ولا ننسى هنا أن نستطرد فنقول إننا نشير فقط إلى جواهر من كلام سيد المرسلين ونكتفي بذلك ولا نتعرض إلى النواحي البلاغية ولا إلى قوتها اللغوية، ولو تناولنا هذه النواحي بالتحليل والدراسة لشاهدنا معاني وأموراً دقيقة أخرى كذلك. ولكن هذا موضوع آخر لا نتعرض له هنا.

فـ . حقوق ثلاثة: حق الله، حق الدولة وحق الدين

ينقل الإمام الترمذي الحديث الآتي: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنْ تَأَمَّر عليكم عَبْدٌ حبشيّ، وإنه من يَعِشْ منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بِسُنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومُحْدَثات الأمور فإنّ كل بِدْعة ضلالة.»[1]

---

(١) **الترمذي**، العلم، ١٦؛ «**منهل الواردين شرح رياض الصالحين**» لصبحي صالح ١/١٥٢؛ وانظر إلى الروايات المختلفة في: **ابن ماجه**، المقدمة، ٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/١٢٦، ١٢٧؛ **أبو داود**، السنة، ٥

يتحدث هنا رسول الله ﷺ عن ثلاثة حقوق. أولها التقوى التي هي حق الله، والثاني هو السمع والطاعة وهو حق الذين يديرون الدولة، والثالث هو الارتباط بالسنة، وهو حق الدين. التقوى: كلمة مشتقة من "الوقاية" وتعني من جهةٍ رعايةَ قوانين الشريعة الفطرية والدخول إلى حماية الله تعالى وتأمين الصيانة والحفظ إزاء قوانين الشريعة الفطرية في حال مخالفتها.

ثم إنه من الواجب إطاعة من تختارونه ليحكمكم حتى ولو كان عبداً حبشياً أسود. وهذه ديمقراطية فوق الديمقراطيات؛ وإن البشرية حتى الآن لم تستطع الوصول إليها؛ ومن الواضح أنها ستأخذ وقتاً طويلاً قبل أن تصل، مع أن هذه الديمقراطية دعي إليها قبل أربعة عشر قرناً. غير أنه ليس من المناسب إطلاق تعبير أو كلمة "الديمقراطية" على النظام الذي أتى به نبي من الأنبياء. ذلك لأنه ما من مفهوم للديمقراطية في الدنيا استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق، إذ لم يتأسس بعد مثل هذا المفهوم أو الفكر في أي أمة من الأمم التي تدعي المدنية. فالسود في أمريكا لا يزالون مواطنين من الدرجة الثانية، وهناك بلدان لا يعدون السود من البشر. بينما أبان الإسلام وقبل عصور عديدة أن الناس إن اختاروا مثل هذا الشخص بملء إرادتهم فيجب عليهم آنذاك إطاعته، كما يتبين من هذا الحديث أن طريق الخلافة مفتوح أمام الجميع. فإن إراد الناس أن يختاروا عبداً أسود ليكون رئيساً عليهم كان لهم ذلك وتجب طاعته على الجميع. فالمهم هنا ليس الشخص المنتخب، بل المهم أن من سينتخبه هم السواد الأعظم من الناس.

إن قوله تعالى ﴿الْيَومَ أَكْمَلتُ لَكُم دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣) يفيد أن الدين قد

اكتمل، أي لم يبق هناك أي شيء يقال. فلا يمكن إدخال أي شيء جديد فيه، ذلك لأن أي بدعة جديدة تدخل إلى الدين تعني إماتة سنة من السنن الشريفة. لذا، كان من الواجب الاعتصام بسنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين من بعده. وهذا الاعتصام لا يكون بالأيدي وإنما بالعضّ عليها بالنواجذ، فسنته مثل طير السعد الذي يجب الاحتفاظ به جيداً بعد اصطياده. ثم إن سنة الرسول ﷺ تبلغ للآخرين عن طريق الفم، ومن يتكلم ضدها تحد له الأسنان ولا يسمح له بإطالة لسانه عليها.

كم يتمنى القلب لو أننا استمعنا إلى هذا الحديث من سلطان البيان نفسه واستطعنا فهمه، إذن، لكانت هذه الجوانب التي حاولنا شرحها غنية. فكل نافذة مفتوحة على كلامه توصلنا إلى معان غنية جديدة. ولا يسعنا ونحن نسمع حديثه ﷺ إلا أن نقول: "صدق رسول الله"

ص . اللـدْغ من جُحْرٍ مرتين

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله البخاري ومسلم:

«لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرتين.»[1]

لن نقف طويلاً أمام هذا الحديث الذي يجب على رجال السياسة في المستقبل أن يهتموا به اهتماماً كبيرا، بل سنكتفي ببعض الإشارات حوله. ومثقفو الغد من الذين انتبهوا فاهتموا بثقافة ومفاهيم أمتهم والذين سيقيمون أسس ومعالم عالمهم من داخل عالمهم... هؤلاء المثقفون السائرون في قوافل

(١) **البخاري**، الأدب، ٨٣؛ **مسلم**، الزهد، ٦٣

النور يجب أن يقفوا طويلاً أمام هذا الحديث ويتأملوه جيداً ويقيموا جميع أسس سياستهم الداخلية والخارجية على الدروس المستنبطة منه، فيكونون بذلك قد وجدوا طريقاً مهماً يقودهم إلى النجاح، وإلا فإن الانخداع في ساحة السياسة والخداع لن ينتهي أبدا، وسيبقى شعبنا مخدوعاً على الدوام.

ة . الناس معادن

على علماء التربية في المستقبل أن يمحصوا جيداً هذا الحديث الشريف الذي يرويه البخاري ومسلم: «الناس مَعادِنُ كمعادن الفضة والذهب. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.»[1]

كأن الرسول ﷺ بحديثه هذا يلقي على المربين وعلماء النفس هذا الدرس: إن معرفة شخصية الإنسان وطبيعة معدنه ضروري ومهم جداً عند تربيته. وسيماء الشخص قد يكون من أمارات عالمه الروحي. لذا، يجب أولاً معرفة العالم الداخلي والعالم الروحي لكل إنسان، لكي يوضع ويصهر في البوتقة المناسبة له، لأن التربية تعني فيما تعني إعطاء شكل ما. وهذا لا يتم إلا بالقدرة على إذابة ذلك الإنسان في بودقة معينة. والقيام بجهود تربوية بشكل عشوائي لن يكون له أي فائدة بل قد يكون وسيلة لإلحاق الضرر. لذلك قال الله تعالى لرسوله الكريم منذ البداية: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٠٨). أجل، إن أي دعوة إلى التفكير يجب أن تكون على بصيرة. والدعوة ببصيرة هي الدعوة الواعية التي تعرف من تخاطب وما غاية الخطاب وبأي مقياس تتم الدعوة. إذن، فرسول الله ﷺ يختار الطريق الواعي لدعوته ويوصي أمته

(١) **البخاري**، المناقب، ١؛ **مسلم**، البر، ١٦٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٣٩/٢

بذلك، والحقيقة أن الله تعالى هو الذي يأمر بذلك مباشرة.

يجب معرفة طبيعة كل شخص: في أي درجة يذوب ويجد ذاته. من وإلى أي بوتقة يؤخذ... وفي أي أنبوب اختبار يصفى... كل هذه الأمور يمكن معرفتها عند الدعوة على بصيرة. الأشخاص الواعون في الجاهلية والذين كانوا على بصيرة وأصحاب عقل وإنصاف عندما فتحوا أعينهم على الحق والحقيقة وتعرفوا على الإسلام ودانوا به أصبحوا في مقدمة صفوف المسلمين. ذلك لأن الذهب عندما يذوب في بودقة يبقى ذهبا، والفضة تبقى فضة والنحاس يبقى نحاساً فلا ينقلب أي معدن إلى معدن آخر أبدا، فالذي كان معدنه ذهباً في الجاهلية بقي معدنه ذهباً عندما أسلم، ولكن بشرط واحد وهو "إذا فقهوا"، أي بشرط أن يتفقهوا في الدين ويتعمقوا في فهمه.

ولكي يكونوا كذلك فلا بد لهم من معلم ومن مرشد، أي يحتاجون إلى كيمائي يتناول نفوسهم فيذيب كلا منها في بوتقة خاصة بها. أجل، فلا بد من هذا لنفخ الإسلام فيهم ولا يمكن لهؤلاء الوصول إلى الفقه إلا بهذا الشكل.

ر . **الظلم وخيم العاقبة**

لا نملك أنفسنا من إيراد هذا الحديث لرسول الله ﷺ: «إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَة إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد﴾ (هود: ١٠٢).[1] إن الله يمهل الظالم المرة تلو الأخرى، أي يقابل الظالم والذي أعلن عصيانه له بالإمهال، ولكن إن أخذه

(١) **البخاري**، تفسير سورة (١١) ٥؛ **مسلم**، البر، ٦١

أخيراً لم يفلته. وهذا معناه أن الظالم تجاوز حده وأن الكأس قد فاض فلم يعد هناك مجال للمهلة.

لله تعالى قوانين جارية في الكون لا تبديل لها ﴿لاَ تَبدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم: ٣٠). ومن هذه القوانين كون الظالم سيفاً بيد الله، حيث يقول رسول الله ﷺ في هذا الخصوص: «الظالم عَدْلُ الله في الأرض يَنتقم به ثم يُنتقم منه.»[١] الظالم هو سيف الله يؤدب به الله من تجاوز حده، ثم يأخذ الظالم أخذاً وبيلاً.. الظالمون اليوم سادرون في غيهم، ولكن إياك أن تيأس وأنت تشاهد هذه الأوضاع فكم من قرى أمهلها الله تعالى وكان يقول لها "كلي واشربي وتمتعي" ثم أخذها أخذ عزيز مقتدر.[٢]

انظروا حواليكم بتمعن ستجدون أمثلة حية على ما نقول. "سَدوم" و"عامورة" و"بومبيي (Pompéi)" ليست إلا أمثلة ثلاثة فقط... من يدري كم من أمثلة أخرى موجودة لا نعرفها، أو كانت أقل عبرة من هذه الأمثلة فتم نسيانها.. ولكن كل هذه الأمثلة شاهدة على هذا القانون الإلهي. ولماذا نذهب بعيدا..؟ ألم تكن فوق هذه الأراضي التي نعيش عليها دولة عليّة عثمانية.. هذه الدولة التي لم يكن يخطر على بال أحد إمكانية زوالها، ولكنها عندما سقطت أصبحت إحدى ذكريات التاريخ التي نتذكرها بقلوب مفجوعة. واليوم تكافح فئة قليلة حصرت داخل حدود ضيقة من أجل البقاء أمام التيارات الداخلية

---

(١) «**كشف الخفاء**» للعجلوني ٢/٤٩

(٢) تشير الآية إلى هذا الأمر: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيَةٍ أَمْلَيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذتها وَإِلَيَّ الْمَصِير﴾ (الحج: ٤٨).

والخارجية التي تستكثر عليها حتى حق الحياة في هـذه المـساحة الـصغيرة. والقانون الالهي الذي لا يتغير هو ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾ (هود: ١٠٢)

ويستطيع المؤرخون الحقيقيون وعلماء الاجتماع أن يستفيدوا مـن هـذا القانون الإلهي الذي لا يتغير، ومن الأمثلة التي تحفـل بهـا مقـابر التـاريخ، يستطيعون الاستفادة وأن يخلدو أنفسهم عصوراً عدة. ونحن نترك تفسير هـذا الحديث لهم لننتقل إلى حديث آخر.

ش . في ظل عرش الرحمن

«سَبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظِلّه يومَ لا ظِلّ إلا ظِلّه: الإمام العادل، وشابّ نَـشَأَ بعبادة الله ﷻ، ورجل قلبُه معلَّق في المساجد ورجلان تَحابَّا في الله اجتمعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقـال إني أخـاف الله، ورجل تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تَعلم يمينُه ما تنفق شمالُه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.»[1]

هذه موضوعات سبعة يمثل كلُ موضوع منها أهمية كبرى من ناحيـة الإرادة الإنسانية. فإيفاء حق بعضها صعب وشاق، وبعضها شباك للروح، ولو تخلـص الإنسان من بعض هذه المصايد فهناك احتمال على الدوام أن يسقط في الـبعض الآخر ولكن إمكانية الوقاية من الوقوع في هذه المصايد أمر وارد إن التجأ الإنسان إلى عناية الله وحمايته، وبذل كل إرادته.. أي إن مقومات هذا الطريق هو استعمال الإنسان إرادته حق الاستعمال مع الاستعانة التامة بالله والالتجاء إليه.

---

(١) **البخاري**، الأذان، ٣٦؛ **مسلم**، الزكاة، ٩١؛ **الترمذي**، الزهد، ٥٣

مثل هذه الجماعة القدسية التي يذكرها النبي ﷺ في حديثه هذا والتي اتحدت فيها الإرادة مع الارتباط بالله والاستعانة به.. هذه الجماعة هي الجماعة الـــتي تخيلها الكتّاب المثاليون في المدن الفاضلة والتي لا يجدونها في الواقع العملي، مما يملأنا رغبة وطموحاً في الوصـــول إلى مثل هذه الجماعة وتحقيقها واقعياً.

أجل، في ذلك اليوم الذي لا تحجب الشمسَ فيه غيمةٌ واحدة.. في ذلـــك اليوم الذي ترسل الشمس حرارتها اللاهبة إلى كل مكان فتغلـــي الأدمغـــة في الرؤوس ويرتفع العرق حتى الأذقان وتنقطع الأسباب ويبدو كل شيء وكأنه عدو للإنسان.. في ذلك اليوم لا يبقى هناك ملجأ ولا منجى ولا ظل إلا حماية الحق تعالى وعنايته.. وسواء أكان هذا ظل العرش أم غيره فهذا لا يهم إذ المهم تغير النظام الذي نعرفه وانقلابه رأساً على عقب وتبدل المقاييس وتبدل الأرض والسماء. في هذا اليوم المرعب لن يكون أحد عوناً لاحد، إذ لـــن تنفـــع أي معونة ولا أي مساعدة آنذاك.. فمن يستطيع فعل ذلك في هذا اليـــوم الـــذي تنقطع فيه الأصوات، وتبلغ القلوب الحناجر، وتدور الرؤوس وتـــشخص فيـــه الأبصار..؟ في مثل ذلك اليوم من يحمي من..؟ من يستطيع ذلك؟ في مثل ذلك اليوم ليس هناك إلا ملجأ واحد.. اللجوء إلى ظل الله أيْ إلى حمايتـــه، وهـــذه الحماية تشمل هؤلاء الأشخاص:

أ. رؤساء الدول الذين وعوا مسؤولياتهم في الدنيا وراعوا الأمانة المودعـــة لديهم.. أي راعوا الحق والعدل والاستقامة.

بـــ. الشاب الذي نشأ في طاعة الله تعالى وذلك في أوج فترة غليان النفس والجسد.

جـ. رجل العبادة الذي تملكه حب العبادة فأصبح قلبه معلقاً بالمساجد.

د. المتحابين في الله.. الذين يجتمعون على حب الله.. ويتفرقون على حبه.. أي الذين جعلوا رضا الله ومحبة الحق محراباً لهم.

هـ. الرجل الكامل الرجولة الذي يستطيع أن يديم حياته على خط "مخافة الله" و"مهابة الله" والذي يستطيع المحافظة على عفته بكل حساسية، والمصمم على الوقوف أمام رغباته وشهواته، القائل دائماً لنفسه الأمّارة بالسوء: "إني أخاف الله رب العالمين."

و. الشخص الذي يقتصد من مصاريفه ولو كان به خصاصة لكي ينفق في سبيل الله رمزاً على إخلاصه ووفائه لله بحيث لا يعلم أحد غير الله انفاقه هذا، وتبلغ حساسيته في هذا الموضوع إلى درجة الغيرة فلا تعلم يساره ما تنفق يمينه...

ز. رجل القلب والعواطف الذي يغني أوقات وحدته وعزلته بالتأمل وبالتفكر والمراقبة ويترجم عواطف قلبه دموعاً تجري من مقلتيه ويستمد قوة إرادته من الله تعالى، وبحواجز هذه الإرادة الفولاذية يحطّم كل رغبات المعصية وينسفها نسفاً... فهذا هو رجل القلب والعاطفة.

أجل، فقد ورد في أحاديث أخرى أن هذا الإمام العادل يكون يوم القيامة على منابر من نور يتلقى عطايا الله،[1] ويرتشفها، وهذا الشاب الذي قضى شبابه عفيفاً ينال رضا الله، وذلكم الرجل المعلق قلبه بالمساجد يكون في ظل الحماية الإلهية، والمتحابون في الله ينالون المحبة الإلهية، والذي ربط قلبه بمهابة الله ومخافته سيكون في أمان مما يخشاه يوم القيامة. وهذا الرجل رجل الوفاء الذي

(١) **مسلم**، الإمارة، ١٨؛ **النسائي**، القضاة، ١؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٥٩/٢

يؤدي صدقته بمقياس دليل صدقه سيجد مقابلها من نعم الله -الذي هو خير الأوفياء- ما يفوق خياله، وأخيراً رجل العاطفة والقلب الذي يكون ظاهره حافلاً بالمعاني وباطنه عميق الغور القدوة الحسنة للناس الذين يعرفونه بجوانبه المشرقة هذه، مثل هذا الرجل عندما يخلو إلى ربه تتفجر أحاسيسه وعواطفه دموعاً منهمرة، وهو إلى جانب اجتيازه جميع المصاعب والمفاوز وإلى جانب نيله العطايا في الآخرة فإنه يعطي نموذجاً للمجتمع المثالي وإطاراً للأمة المثالية التي تقود الإنسانية إلى هذه المثل الرفيعة.

ولا أدري أهناك حاجة لتكرار القول أن معاني عميقة عمق البحار والتي لا يمكن التعبير عنها إلا بمجلدات قد صيغت في أسطر قليلة فكأن القطرة الواحدة استوعبت بحراً زاخراً.

تـ . الدنيا ظل

في حديث آخر يقول الرسول ﷺ: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[1]

ما الدنيا؟ وكيف يتصرف الإنسان تجاه شيء زائل ووقتي؟ ثم لماذا أتى الإنسان إلى هذه الدنيا وإلى أين يغادرها؟ هذه هي المسائل الرئيسة للفلسفة والتي قيل الشيء الكثير عنها طوال عصور عديدة. وكما هو واضح فقد بين رسول الله ﷺ هذا الأمر بشكل وجيز وبليغ. وهذه المسألة وغيرها من المسائل التي لا يستطيع الآخرون شرحها وإيضاحها في مجلدات يشرحها النبي ﷺ بأوجز شكل وأبلغه وأوضحه. أجل، إن الإنسانية جمعاء معجبة ببيانه الوجيز.

---

(١) **الترمذي**، الزهد، ٤٤؛ **ابن ماجه**، الزهد، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٠١/١

«أُعْطيتُ خمساً لم يُعْطَهنّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْـــب مـــسيرةَ شـــهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمـــتي أدركتـــه الـــصلاة فليصلِّ. وأُحِلَّت لي الغنائم و لم تُحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الـــشفاعة، وكـــان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامة.»[1]

أَعطى الله النعم بمعناها الكلي للجميع، وبمعناها الخاص لكل أمة ولكل نـــبي، فلكل منهم نعمة خاصة ولطف خاص، فلآدم عليه السلام ولأتباعه أعطاهم الصفوة ونيل شرف فَهْم معاني الأسماء الحسنى، ولنوح عليه السلام روح الكفاح والعـــزم والعزيمـــة، ولإبراهيم عليه السلام درجة أبوة العديد من الأنبياء وعشق التوحيد وخلـــة الـــرحمن، ولموسى عليه السلام قابلية التعليم والتربية والعلوم الاجتماعية والدراية في إدارة المجتمـــع ولعيسى عليه السلام جانب اللين والشفقة والصبر والتحمل ونشر المـــسامحة في المجتمـــع والمحبة بين الناس، ولسيد الزمان والمكان محمد صلى الله عليه وسلم ولأمته الإرادة والحكمة والموازنة وصفات التحليل والتركيب وغيرها من الصفات التي تستوجبها الرسالة العالميـــة، وذلك إضافة إلى الصفات الممنوحة للأنبياء السابقين. لذا، فإنه بجانب كون الدين الإسلامي أكثر الأديان مسؤولية وواجبات فإنه ألطفها وأسماها وأبركها وأكثرهـــا قرباً من النفس البشرية، ويعد هذا من صفاته كدين عالمي.

يتناول هذا الحديث الشريف رسول الإسلام ورسالته العالمية الشاملة بأسلوب آخاذ ويبسطها أمام الانظار. عندما قام مبلغ هذا الدين العالمي وهـــذه الـــدعوة العالمية وتلاميذه الأوائل بنشر هذا النظام العالمي في أرجاء العالم، كانوا يـــشعرون

(١) **البخاري**، التيمم، ١، الصلاة، ٥٦؛ **مسلم**، المساجد، ٣

بمدى مسؤوليتهم ويدركونها. فكانوا يسرعون من جبهة قتال إلى أخرى يجاهدون في سبيل الله لاستلام قيادة العالم... يقتلون ويُقتَلون... يبرهنون على أحقيتهم في الدخول إلى الجنة ورؤية جمال الله... يستهينون بحياتهم الدنيوية في سبيل دعوتهم. وبحرص أكبر من حرص الآخرين ورغبتهم في الحياة الدنيا، كانوا يذوبون شوقاً للقاء الله ويسعون لتحقيق الخلافة في الأرض. لذا، فما كان بقدرة أحد قتال أمثال هؤلاء الذين ارتبطوا بالعالم الآخر مثل هذا الارتباط. أما الذين ساقهم سوء حظهم لمواجهة هؤلاء فقد أخذهم الخوف والرعب إلى درجة الشلل منذ الخطوة الأولى... لاسيما عندما يبلغ تعظيم الله تعالى عند المؤمنين درجة المهابة، فوعد «نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر» سلاح رهيب بيد المؤمنين الصادقين وقلعة حصينة لهم.

ثم إن كون الأرض مسجداً وطهوراً لمنتسبي هذا الدين واستطاعتهم أداء الصلاة في كل مكان دون حاجة إلى وجود معبد أو مصلى بُعدٌ آخر من أبعاد هذا الدين العالمي. والبعد الآخر هو إباحة الغنائم لكي يمضي الجهاد في سبيل الله حتى يوم القيامة دون عائق أو مانع.. وبُعدٌ آخر هو الشفاعة العظمى يوم القيامة حيث يؤخذ بيد كل شخص –ضمن معايير ومقاييس معينة– لإيصاله إلى مستوى معين من الأمن ومن السلامة.. أما كون جميع الأنبياء بعثوا إلى أممهم خاصة، وبعثته ﷺ إلى الناس عامة فهو البُعدُ الصريح الواضح في هذا الشأن. كما يمكننا استنباط الأمور التالية من الحديث الشريف دون أي تكلف أو تعسف:

أ. أن النبوة ورسالتها المصاحبة لها موهبة إلهية لا يمكن تحصيلها بجهد بشري.

بـــ. أن هذه المميزات الخمس من خصائص الدعوة المحمدية فلم تعـــط لأي نبي أو رسول.

جـ. أن إرسال الرعب إلى قلوب الأعداء من مسافة بعيدة حالة نبوية خاصة وهدية إلهية إلى من يعيش في ظل ذلك الخط النبوي.

د. أن عدم ارتباط العبادة بالمعابد وبرجال الدين[1] كما يشكل بُعـــدا في عالمية هذا الدين وشموله، فإنه يشكل تيسيراً لعلاقة العبد بالمعبود في كل زمـــان وفي كل مكان. وهنا ترد خاصية أخرى وردت مع الرسالة الإسلامية وهي أن التراب مطهِّر أيضاً كالماء. ونرى هنا من الفضول أن نتحـــدث عـــن أهميـــة الاغتسال في الإسلام وعن خاصية التطهير بالماء وكونه منبعاً للحيـــاة وعـــن خاصية التطهير بالتراب.

هـ. أن أخذ الغنيمة لم يكن في حد ذاته حراما، وإنما كانت حرمة الغنيمـــة متعلقة بالزمن وامتحاناً. وقد تم تجاوز هذه المحرمات في زمـــن رســـول الله ﷺ ولاسيما إنها كانت المصدر الرئيس للجهاد الذي هو ماض إلى يوم القيامـــة.[2] لأنها تكون مصدر إعاشة للذين وهبوا أنفسهم له وعاملاً مشوقاً لهم، وســـبباً فعّالاً في إضعاف جبهة الأعداء من الناحية المالية وعدم تمكينـــهم مـــن لَـــمّ صفوفهم، لكونها مهمة ومباحة -مع أنها غير واجبة- فهـــي ليـــست منافيـــة للإخلاص لأنها وسيلة لإعلاء كلمة الله.

---

(١) نفهم من الحديث الشريف عدم ارتباط العبادة بالمعابد ومن ثم برجال الدين.

(٢) **أبو داود**، الجهاد، ٣٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠٦/١

و. أن الشفاعة حق.. ويجوز أن يقوم كل واحد بالشفاعة بإذن الله تعالى.. ولكن الشفاعة العظمى يوم القيامة من ناحية شمولها وإحاطتها وعلاقتها بكل الناس تقريبا نعمة وميزة معطاة له ﷺ وحده وهي من الخصائص الأحمدية ومبعث سرور وفخر لنا.

ز. كان الأنبياء السابقون مبعوثين لأممهم وقبائلهم لا غير، أي في دائرة ضيقة، أما خاتم الرسل وسيد الأنبياء فقد أرسل للناس وللوجود بأكمله، لذا فإن دعوة الأنبياء السابقين كانت قائمة ما دامت قبائلهم وأقوامهم موجودة، أما هذه الرسالة فهي عامة وشاملة وتضم الوجود كله؛ لذا، فهي باقية ومستمرة حتى يوم القيامة.

هاكم إذن، سلسلة وضيئة أخرى منقوشة حول معانٍ مشتركة جامعة ورصينة وقوية من ناحية محتواها وطريقة التعبير عنها.

خ. المؤمن إنسان مسؤولية

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رَعِيَّته. الإمامُ راعٍ ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[1]

ترد كلمة "راع" بمعنى الشخص الذي يحرس ويصون ويراقب ويهتم. لذا، أطلقت كلمة "الراعي" على الشخص الذي يحفظ الحيوانات الموجودة في عهدته ويصونها من الحيوانات المفترسة ويجد لها أفضل المراعي، وعندما يقوم

(١) **البخاري**، الجمعة، ١١؛ **مسلم**، الإمارة، ٢٠

بمهمته هذه يكون بفطرته السليمة بعيداً عن كل حرص معيب، ويكون شغله الشاغل الرحمة والشفقة التي يحسها تجاه قطيعه حيث يتألم بألمه ويسعد براحته.

وهكذا فإن العلاقة بين رئيس الدولة وبين المواطنين تشبه -في وجه من الأوجه- هذه العلاقة. كما أن على ممثليه في الدوائر المختلفة وعلى مختلف المستويات مراعاة أحوال من هم تحت أيديهم ومقاسمتهم آلامهم وأفراحهم وأن يهيئوا لهم مستقبلاً أميناً وسعيداً ويجابهوا المشكلات التي تعترضهم.

والعلاقة نفسها موجودة عند رئيس الأسرة، فهو المسؤول الأول عن نفقتهم وإلباسهم وإسكانهم في مسكن مناسب، ثم عن تعليمهم وتربيتهم وحسن معاشرتهم وإرشادهم إلى الطرق التي توصلهم للسعادة في الدار الآخرة. والأمر نفسه يرد في علاقة المرأة بزوجها في تدبير شؤون بيتها والمحافظة على مال زوجها وعرضه.

والخادم أيضا في موضع الراعي بالنسبة لمال سيده وملكه، كما يراعي الابن مال أبيه وشرفه وكرامته، حتى يمكن أن يقال إنه ما من إنسان في الإسلام يخرج عن دائرة "الراعي" و"الرعية"، فهو من جانب "راع"، ومن جانب آخر "رعية" حتى أنه لو لم تكن هناك "رعية" لراع فهو مسؤول أيضاً لأنه مسؤول عن رعاية عقله وجسده وأحاسيسه وأعضائه، فهي كلها أمانة عنده يجب مراعاتها والاهتمام بها.

والإسلام من بين كل النظم والأديان هو النظام الوحيد في الحياة الذي بين مسؤولية كل شخص حتى أدق تفاصيلها بدءاً من رئيس الدولة وانتهاء بالخادم في المنزل، وذلك في عهد لم ير أحد الديمقراطية حتى في المنام. وليس هناك من نظام حياتي آخر يستطيع منافسته في هذا الموضوع. يقول نبي الإسلام إن «الإمام

راع ومسؤول عن رعيته» ويعدد مسؤوليته ويعيّن حدود هذه المسؤولية ويشير إلى وظائفه ومهامه.. ويذكر بمسؤوليات الرجل والمرأة كل على حدة وفي ساحاتها المختلفة، ويحمل كلا منهما مسؤولياتهما... مسؤولية الأب نحو ابنه، ومسوؤلية الابن نحو أبيه. كما بحث عن حقوق ومسؤوليات العمال والخدام في وقت مبكر جداً إن أخذنا التطور العالمي في هذا الموضوع بنظر الاعتبار، وقدّم حلولاً للمشاكل الاجتماعية قبل حدوث الهزات الاجتماعية في تاريخ البشرية.

هذه بعض الكلمات النبوية حول الحقوق المتقابلة بين الإمام والرعية – شرحت معظم هذه الحقوق في كتب "الأحكام السلطانية" وغيره– وبين الابن والوالدين وبين الزوج وزوجته، وبين العامل وصاحب العمل، وقد تم تفصيل هذه الحقوق في كتب الفقه وفي رسائل الأخلاق والتربية، وفي كتب علم الاجتماع والحقوق وشغلت فيها مواضع بارزة.

ذ . بعض أنواع الحرام والمكروهات

«إن الله حرّم عليكم عُقوقَ الأمهات ووَأْدَ البنات ومَنْعاً وهاتِ وكَرِهَ لكم قيل وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال.»[1]

١. عقوق الأم

إن الابن الذي يعق أمه ويعصيها كأنه يقطع كل حقوقية العلاقة بينه وبينها ويدفعها نحو الوحدة. ومع أن عقوق الأب أيضا محرم، إلا أن ذكر الأم هنا ينبع من كون النساء أكثر حاجة للحماية، وكذلك لكونها أرق شعوراً وإحساسا،

(١) **البخاري**، تفسير سورة (١١) ٥؛ **مسلم**، الأقضية، ١٢

لذا فإن عقوقهن يجرح شعورهن بشكل أقوى ويزيد في حـــزنهن. ولأن الأب يشترك مع الأم في حقها على الابن فإن عقوق الأب حرام أيضاً ولكن لا يمكن قياسه مع حرمة عقوق الأم.

٢. وأد البنـــات

كان عرب الجاهلية يقومون –في بعـــض المنـــاطق وفي بعـــض المـــستويات الاجتماعية– بوأد البنات أي دفنهن وهنّ أحياء. كان البعض يقومون بهذا العمـــل الوحشي بدافع غريب من شعور الغيرة؛ والبعض الآخر بـــدافع الفقـــر والـــضيق الاقتصادي، وغيرهما بدافع قَبَلي لمنع انتقال ثرواتهم إلى الغرباء. ومهما كان الدافع لهذا العمل، فقد كان عملاً وحشياً يجب منعه والقضاء عليه وقد تم هذا فعلا، لذا حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الموضوع بأوامر مشددة.

٣. خيانة الأمانة

رمَز الحديث الشريف إلى الامتناع عن دفع الديون والحقـــوق الأخـــرى اللازمة بكلمة "منعا" ومحاولة أخذ أو طلب الأشياء الممنوعة بطـــرق مختلفـــة بكلمة "هات"، أي يحرم الامتناع عن دفع الحقوق الواجب أدائها، كما يحـــرم أخذ الأشياء دون وجه حق. وخَطُّ الحرمة هنا هو نفس خط الحرمة لعقـــوق الوالدين ولوأد البنات.

كما يمكن فهم الكلمة الأولى هنا أي كلمة "منعا" بمنع الزكاة المفروضـــة عليه والصدقات وسائر الإعانات الأخرى وعدم أدائها إلى المـــستحقين مـــن الفقراء. وفهم الكلمة الثانية "هات" في مجال التسول والسؤال. وإذا أردنـــا أن

نخطو خطوة أخرى إلى الأمام لقلنا إن الكلمة الأولى تعني فيما تعنيه إنكار الديون بعد أخذها وأكل حقوق الآخرين وعدم تسديد قيمة الصكوك والسندات، والقيام بحيل معينة في سبيل ذلك كإعلان الإفلاس وغير ذلك من الحيل والطرق غير المشروعة في كسب المال وأكل حقوق الآخرين ثم إهمال إيصال هذه الحقوق إلى أصحابها بل حتى التمرد في هذا. وعن الكلمة الثانية نقول إنها تشمل حاليا حالات عديدة بدءاً من التسول العادي إلى قيام بعض الدوائر –رسمية كانت أم غير رسمية– باستغلال العواطف الدينية أو الوطنية في الشعب لامتصاصها وخداع الجماهير وأخذ أموالها بالباطل بطرق عديدة.

يتناول هذا الحديث المليء والموجز عقوق الأولاد لوالديهم وقطعهم لصلة الرحم أو قيام الوالدين بتصرفات قاسية وغير إنسانية تجاه أولادهم دون الاهتمام بعواطف الرحمة والشفقة المركوزة في فطرتهم، وقيام بعض الأنانيين في المجتمع –الذي يعد عائلة كبيرة– بوضع مصالحهم ومنافعهم الشخصية فوق كل اعتبار، وهزهم بذلك قواعد النظام والثقة والاطمئنان والأمن في المجتمع، وبعد أن جمع الحديث هذه الأمور في خط الحرام لصفة مشتركة بينها أشار إلى أمور أخرى ثلاثة ممنوعة أيضاً وإن لم تكن في المستوي السابق من ناحية الحرمة وهي "قيل وقال" أي نشر الشائعات و "كثرة السؤال" أي طرح أسئلة عديدة في غير أماكنها، أو المقصود جعل الشحاذة والتسول صنعة ومهنة. و"إضاعة المال"، أي تبذير المال بالإسراف هنا وهناك.

٤. الشائعات

رمز إلى الشائعات هنا بـ"قيل وقال". وقيل وقال هو كل كلام لا ينفع لا في

الدنيا ولا في الآخرة... هو الكلام التافه وغير الضروري... هذا قد يكون كلاماً لا يعنينا في شيء أو بياناً يقترب من حدود الممنوعات، ونشر الشائعات مرض اجتماعي يختلف في شدته باختلاف المستوى الاجتماعي للناشرين وباختلاف واسطة الشائعة –قد تكون جريدة أو مجلة أو إذاعة أو تلفزيونا– ومدى وسعة دائرة انتشارها. وهذا مرض اجتماعي يسري في المجتمعات التي تعطلت فيها مواهب الأفراد وتسطحت فيها مشاعر الجماهير وضاقت آفاق تفكيرهم.

إن كل الآثام القاتلة التي يكون الفم مصدرها والتي حرمها الإسلام تنمو وتنتشر عن هذا الطريق "القيل والقال". ولهذا أورد الرسول ﷺ قول المعروف أو الصمت من بين أشياء ثلاثة أوصاها إذ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه.»[1]

٥. كثرة السؤال

وهي إما الإسراف في طرح أسئلة لا معنى لها أو القيام بالتسول دون ضرورة ماسة واتخاذ التسول مهنة وعادة، وكلا الأمرين مذموم. فقد حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة التسول خارج نطاق الضرورة. كما أنّ طرح أسئلة هنا وهناك وفي كل وقت وحين شيءٌ مذموم وغير مستحب، إذ الأفضل أن تتوجه مشاعر الناس وأفكارهم إلى أمور مفيدة مثمرة. وعلى أي حال فإننا نرى أن القرآن الكريم يقسم الأسئلة إلى نوعين. نوع مقبول ومستحسن ومثاله ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢١٥) ونوع مذموم

(١) **البخاري**، الرقاق، ٢٣؛ **مسلم**، الإيمان، ٧٥

وغير مستحب ومثاله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (الإسراء: ٨٥).

طرح السؤال أو عدم طرحه.. التسول أو عدم التسول.. وجود ضرورة أو عدم وجود مثل هذه الضروة، وجود حاجة أو عدم وجودها. كل هذه الأمور هي التي تعين عما إذا كانت أفعال المكلفين واجبة أم حراماً أم مباحة. لذا، فإن هذين الموضوعين وإن بدا مختلفين إلا أنه يمكن مطالعتهما وتفسيرهما معاً من جهة وحدة اتجاههما.

أما "إضاعة المال" فيمكننا تفسيرها بأنها إنفاق المال دون أن يكون لهذا الإنفاق أي فائدة دنيوية أو أخروية، أي تبديد الثروة هباء منثوراً فيما لا ينفع. وهذا مرض فردي ومرض اجتماعي. أجل، قد يبدو قيام فرد ما بتبديد ثروته وإضاعتها فيما لا ينفع وكأنه ضرر فردي يصيب ذلك الفرد فقط، غير أن ثروته لكونها جزءاً من ثروة البلد والمجتمع فإن تبديدها وإضاعتها فيما لا ينفع يضر المجتمع ويضر البلد ككل. وينتهي هذا الحديث الشريف بهذه المسألة الأخيرة التي اكتسبت أهمية كبيرة في أيامنا الحالية والتي ستكتسب أهمية أكبر في المستقبل ألا وهي الاستغلال الجيد للثروة والاستثمار الاقتصادي لها. ولا ننسى أن ننوه إلى سعة المعاني العميقة وشمولها التي أكسبها سلطان الأدباء والبلغاء قوة بحسن اختياره للكلمات واستعمالها في مواقعها الصحيحة المناسبة.

ض . **الإحسان**

«الإحسان أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.»[1]

(١) **البخاري**، تفسير سورة (٣١) ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٥، ٧

إن شعار المؤمنين الكاملين هو أن يتكامل الإيمان ويتحد بالإسلام ويقترب من درجة الإحسان. وقيام المؤمنين ضمن الإيمان والإسلام بالوصول إلى درجة الإحسان، أي الوصول إلى بُعد أسمى ومستوى أرقى من الإيمان والإسلام، وإيفاء هذه الدرجة حقها يؤدي إلى أن يكون مظهراً لعناية الله ولطفه على قاعدة "إن الخير ينتج الخير"، لذا يجازيه الله تعالى بـ«ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.»[1] أي بمفاجاة من جنس الإحسان.. إذ ترد هنا قاعدة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠). فإحسان العبد هو إخلاصه بمقدار عمق إيمانه وأدبه وخشيته؛ وإحسان الله تعالى بمقدار عظمته وغناه وقيامه بملء قلب عبده بالإيمان واستثارته بالإلهام ورفع الغشاوة عن عينه ليريه الأشياء على حقيقتها، وحفظ لسانه عما لا يعنيه، وإنطاقه بالحكمة وإلهاب عاطفته حتى تسرح في آفاق التجليات.. وعندما يصل المؤمن إلى هذا وتنفرج أمامه أستار الوجود، يصبح وكأنه يراه ولكن "دون كم أو كيف"، ولكن لكونه تعالى ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) فإن المؤمن المتيقن من رؤية الله تعالى له، بسعادة رؤيته لله، وبمهابة رؤية الله له يكاد يغيب عن صوابه، فكما يَتخيل الصائم وهو ينتظر ساعة الأفطار لذة الإفطار، كذلك يحس المؤمن- الذي قضى حياة حافلة بألوان الطاعة والإخلاص والخضوع والخشوع - من الرؤية العاجلة وغير التامة في هذه الحياة لذّةَ تلك الرؤية التامة والأجلة في الدار الآخرة. فكأن حياته الدنيوية - التي هي أيام معدودات - بمثابة صوم وصال حتى لقاء حبيبه. ففي كل جزء من أجزاء الثانية الواحدة تتضاعف هذه اللذة أضعافاً مضاعفة، فكأن حياته الواحدة تصبح ألف حياة.

---

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣٥؛ **مسلم**، الجنة، ٢-٤

أجل، فكما أن العبد يسعد سعادة لا حدود لها عند رؤية سلطان الأزل والأبد فهو يسعد عندما يشعر أن الله يراه، أي يحس بسعادة ولذة من معرفته بأن الله يراقب ما يقدمه من خدمات ويشاهده. يسعد بعمق وهو يؤدي حتى أقل أعمال الخير والبر وأصغرها.

وما قلناه ليس إلا نافذة صغيرة على معاني كلام سيد المرسلين ﷺ الوجيز والبليغ والذي يتسع شرح لآلئه وجواهره لمجلدات. إذن، فهذه قطرة من بحر... ولمعة من شمس... وشعلة من عالم تسبح فيه النجوم. فالتصدي لشرح هذه الكلمات النورانية -التي هي مرآة مجلوة لعكس الحقيقة الأحمدية- شيء يتجاوز قدراتنا، ومع أننا خضنا في هذا الأمر عمداً إلا أننا نضرع إليه ﷺ ونبتهل إلى الله تعالى أولاً وآخراً لكي يغفر لنا هذه الجرأة. ولقد سبق وأن قلنا بأن شرح كلماته النيرة بكل أبعادها شيء يتجاوز طاقتنا وقدرتنا وأننا بانتظار من يكون أهلاً للقيام بهذا العمل. إلا أننا مع هذا أظهرنا بعض الجرأة وقمنا بمحاولة تحليل بعض جوانب من بعض أحاديثه. والشيء الذي تجرأنا على الخوض فيه -بأسلوب عامي- هو تناول بضعة أحاديث مضيئة من عالمه ﷺ الواسع الفسيح، ومن زاوية عمق محتواها ورصانة أسلوبها وبلاغة بيانها. لذا، نرجو الله أن يغفر لنا، وأن ينظر إلينا أرباب العلم نظرة تسامح.

(٢) وباقة من أدعيته

نود هنا أن نتناول بعض أدعيته ﷺ وأن نلفت أنظاركم إليها، فالكلمات والمعاني الموجودة في أدعيته ﷺ من العمق ومن التميز والسمو والغنى بحيث لا يستطيع أحد الوصول بل حتى الاقتراب منها. ونستطيع أن نقول دون تردد بأن

كل دعاء من أدعيته يحتوي من ناحية المعاني ما يملأ كتاباً بكامله. فكما أن أقواله وأحاديثه أسمى من كل الأقوال والأحاديث البشرية الأخرى، فإن أدعيته أعمق بكثير من كل الأدعية التي تلفظت بها الإنسانية سابقاً أو ستتلفظ بها في المستقبل. ذلك لأنه كان أعلم الخلق بالله تعالى وأشدهم خشية له، لذا كانت أدعيته أعمق الأدعية وأسماها وأرقها. فرسول الله ﷺ يعلمنا الدعاء التالي عند التهيؤ للنوم:

«إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأْ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللّهم أسلمتُ نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلتَ ونبيك الذي أرسلت.»[1] ما أروع هذه الكلمات المستعملة!. ما أعذبها وما أرقاها..! ما أصفاها وما أنقاها..! وما أدفأ معانيها، وما أعمق محتوياتها.ولكوننا سنورد هذه الأدعية في فصل خصصناه لأدعيته فإننا نؤجل شرحها ونكتفي بلفت الأنظار إلى بلاغتها وإيجازها فقط.

ودعاء آخر له: «اللّهم باعِدْ بيني وبين خطاياىَ كما باعدتَ بين المشرق والمغرب. اللّهم نقِّني من خطاياىَ كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيض من الدَنَس.»[2] معاني هذا الدعاء تملأ كتاباً... لا أملك قول شيء آخر. أجل، لقد كان ﷺ سلطان الداعين.

---

(١) **البخاري**، الدعوات، ٦، ٧، ٩؛ **مسلم**، الذكر، ٥٦، ٥٧

(٢) **البخاري**، الأذان، ٨٩؛ **مسلم**، المساجد، ١٤٧؛ **ابن ماجه**، الدعاء، ٤

ودعاء آخر له: «اللّهم إني أسألك من الخير كله؛ عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم. وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه و ما لم أعلم.»[1]

ومن لآلئ أدعيته ﷺ الذي أوتي جوامع الكلام: «اللّهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لِما منعتَ، ولا يَنفع ذا الجَدّ منكَ الجَدّ.»[2]

ثم دعاء آخر: «اللّهم ما قلتُ من قول أو حلفت من حلف أو نذرتُ من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك. ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. لا حول ولا قوة إلا بك. إنك على كل شيء قدير. اللّهم ما صليتُ من صلاة فعلى من صليتَ، وما لعنتُ من لعنٍ فعلى من لعنتَ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.»[3]

و«وأسألك اللّهم الرضا بعد القضاء وبَرْدَ العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقاً إلى لقائك من غير ضَرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضِلّة، أعوذ بك أن أَظلِم أو أُظلَم أو أَعتدِي أو يُعتدى عليّ أو أَكسِب خطيئة أو ذنباً لا تغفره.»[4]

و«...وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضَيعة وعورة وذنب وخطيئة. وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.»[5]

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١٤٧/٦

(٢) **البخاري**، الأذان، ١٥٥؛ **مسلم**، الصلاة، ٢٠٥؛ **أبو داود**، الصلاة، ١٣٩

(٣) «**المسند**» للإمام أحمد ١٩١/٥؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١١٣/١٠

(٤) «**المسند**» للإمام أحمد ١٩١/٥؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١١٣/١٠

(٥) «**المسند**» للإمام أحمد ١٩١/٥؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١١٣/١٠

ودعاء آخر: «اللّهم أنت أحَقُّ من ذُكِر وأحقّ من عُبِد وأنصَرُ من ابتُغِي وأرأف من مَلَك وأجود من سُئِل وأوسع من أعطى أنت الملِك لا شريك له والفردُ لا يهلك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك ولن تُعصى إلا بعلمك. تطاع فتشكر وتُعصى فتغفر، أَقربُ شهيد وأدنى حفيظ. حُلتَ دون الثغور وأخذتَ بالنواصي وكتبتَ الآثار ونسخت الآجال، القلوبُ لك مفضية، والسِّرُّ عندك علانية، الحلال ما أحللتَ، والحرام ما حرمت والدين ما شرعتَ، والأمر ما قضيت، والخلق خلقك والعبد عبدك وأنت الله الرؤف الرحيم. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض بكل حقٍّ هو لك وبحق السائلين عليك أن تقبلني في هذه الغداة وفي هذه العشية وأن تجيرني من النار بقدرتك.»[1]

«اللّهم إنا نسألك من خيرِ ما سألك منه نبيك محمد ﷺ ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ .»[2] «اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها.»[3]

«اللّهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب.»[4]

---

(١) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١١٧/١٠

(٢) **الترمذي**، الدعوات، ٨٨

(٣) **مسلم**، الذكر، ٧٣؛ **أبو داود**، الوتر، ٣٢

(٤) **الترمذي**، الدعوات، ٢٣؛ **النسائي**، السهو، ٦١؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٧٣/١٠

«اللّهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردتَ فتنة الناس فتوفني غير مفتون. وأسألك حبَّك وحبَّ مَن يحبك وحُبَّ عمل يقربني إلى حبك.»[1]

«اللّهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره، وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة. آمين.»[2] «اللّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.»[3] «اللّهم إني أسألك الهدى والتُّقَى والعَفاف والغنى.»[4] «اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.»[5]

في هذه الأدعية لا يمكنك تبديل كلمة واحدة، أما الانسجام الموجود بين الكلمات فشيء رائع حقا، وليس في إمكان أحد الوصول إلى أبعاد هذه الأدعية.. أجل، لقد كان رسول لله ﷺ قمة شاهقة في الأدعية أيضاً. لقد اقتبس كل الأولياء والزهاد كلمات من أدعية رسول الله ﷺ ليزينوا أدعيتهم بها ويعطوا لها حيوية ودفئا، ولكي يطرقوا بدعائه ﷺ باب رحمة الله. ويتميز أسلوب رسول الله ﷺ في الأدعية بإشراقة مضيئة بحيث تستطيع معرفته ضمن الأساليب الأخرى وتشخيصه بسرعة قائلاً ''هذا كلام رسول الله ﷺ.''

---

(١) **الترمذي**، تفسير سورة (٣٨) ٢؛ **الموطأ**، القرآن، ٤٠

(٢) «**المستدرك**» للحاكم ٥٢٠/١

(٣) «**المستدرك**» للحاكم ٤٩٩/١

(٤) **ابن ماجه**، الدعاء، ٢؛ **مسلم**، الذكر، ٧٢؛ **الترمذي**، الدعوات، ٧٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤١٦/١، ٤٣٤، ٤٣٧

(٥) «**المسند**» للإمام أحمد ١٨١/٤؛ «**المستدرك**» للحاكم ٥٩١/٣

عندما أقرأ أدعية عمالقة الروح والقلب ومناجاتهم من أمثال أبي الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي والشيخ الكيلاني يغمرني الوجد والهيام وأكاد عندما أقرأ بعض المقاطع منها أن أغيب عن الوعي، فأدعيتهم مؤثرة جداً ومدهشة، ولكنهم جميعاً اقتبسوا من أدعية الرسول ﷺ وأدخلوها في هذه المقتبسات ضمن أدعيتهم لكي يغنوها ويزينوها بها. ونحن بدورنا نستخدم أدعيتهم هذه عندما نطرق باب رحمة الله تعالى بأمل قبولها.

وختاماً نقول إن كلام رسول الله ﷺ وأحاديثه بأجمعها دليل على فطنته، وبعض كلماته لكونها من ''جوامع الكلم'' تحمل أهمية خاصة. والأسلوب الذي يستخدمه في تعابيره في الأدعية يدخل ضمن هذا القسم، فإن أحاديثه وأدعيته تشيران إلى منطق النبوة أي إلى منطق العقل ذي البُعد الأخروي ويشير إلى بعده الإلهامي... فما هو إلا سلطان الأنبياء والرسل.

ج. الرحمة النبوية بعد من أبعاد فطنته ﷺ

إن رحمة النبي ﷺ وشفقته تشكلان بعداً آخر من أبعاد فطنته. ويمكن رؤية عمق آخر في فطنة رحمة النبي ﷺ وشفقته. أجل، لقد كان سيدنا محمد ﷺ هو الممثل الوحيد لتجلي صفة الرحمة والرحمانية لله تعالى في الأرض. واستعمل هذه الصفة كإكسير شاف لفتح القلوب والتربع على عروشها. ذلك لأن صفة الشفقة والرأفة واللين في الإنسان هي العامل الثاني في جذب الناس وفتح قلوبها بعد صفة الإخلاص والتجرد الحقيقي. لقد كانت رقة وجمال العالم الداخلي للرسول ﷺ وقابليته غير الاعتيادية ورحمته وشفقته –اللتان كانتا بُعدا آخر من أبعاد فطنته– من عوامل نجاحه التي استعملها واستغلها، ومن دلائل نبوته كذلك.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. أجل، لقد كان مرآة مجلوة تعكس رحمة الله تعالى... كأنه كان نبعاً وسط الصحارى أو حوض كوثر... تقاطر عليه الجميع وفي يد كل منهم وعاؤه... يشرب حتى يطفئ ظمأه ويروي غلته ويملأ وعاءه... أجل، إنه بسرّ بُعد الرحمة المتجلية فيه مثل حوض كوثر للجميع، من أراد استطاع الاستفادة منه.

غير أنه بهذه الفطنة الرائعة جعل الرحمة الموجودة في فطرته شباك رحمة لصيد القلوب، فمن وجد نفسه في ذلك الجو الساحر وجد نفسه في طريق الجنة وفي قمة الوجد... هكذا كانت "الرحمة" في يد رسول الله ﷺ مفتاحاً سحرياً... فبهذا المفتاح فتح مغاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب... أجل، لقد سلّم هذا المفتاح الذهبي إلى محمد المصطفى ﷺ لأنه كان أليق الناس به، والله تعالى دائما يسلم الأمانة لمن هو أهل لها؛ لذا، سلم مفتاح القلوب التي أعطاها أمانة للناس إلى من هو أكثر أهلية له من بين كل الناس وكل البشر... إلى محمد ﷺ. أجل، لقد أرسله الله رحمة للعالمين، فقام ﷺ بتقييم هذه الرحمة بشكل متوازان جدا، لأن التوازن شيء مهم في موضوع الرحمة.

١- الإفراط والتفريط في الرحمة

هناك إفراط وتفريط في مسألة الرحمة كما في المسائل الأخرى. ويمكن مشاهدة أفضل مثل على سوء استعمال الرحمة في فكر وتصرفات الماسونيين، فهم مع كونهم يتحدثون بمبالغة عن الحب وعن الإنسانية نراهم لا يستطيعون إقامة أي علاقة حميمة مع أي شخص متدين، بل لو كان في مقدروهم أن

يقتلوا كل شخص متدين ومسلم لفعلوا. فالحب الذي يتحدثون عنه مقتصر عليهم وعلى من يفكر مثلهم، وهذا الحب في الحقيقة ليس الحب الخالص الذي نعرفه نحن، بل هو حب قائم على المنافع وعلى المصالح بينما كانت رحمة سيد المرسلين رحمة متوازنة شاملة لم تشمل الناس فقط بل شملت الوجود باجمعه.

يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي ﷺ، ذلك لأنه ﴿...بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨). ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضا -إلى جانب المؤمنين - الاستفادة من هذه الرحمة كذلك. حتى أن لجبريل حصة من هذه الرحمة.[١] وانظروا وتأملوا مدى شمولية وسعة هذه الرحمة بحيث أن الشيطان نفسه بعدما شاهد هذه الرحمة انبعث فيه بعض الأمل فيها.[٢] الرحمة التي يمثلها غير مقتصرة على أناس معينين ولا على جماعات معينة و لم يقم أبداً باستغلال هذه الرحمة كما فعل البعض.

٢- **خدعة "الإنسانية** (Humanizm)"

في أيامنا الحالية تيارات اتخذت من فكرة "الإنسانية" ستاراً لخداع الإنسان. وأنا أتساءل: ما الفرق بين هذا التصرف وبين تصرف العقارب والثعابين التي تقترب من الإنسان لتلدغه..؟ إن الحب الذي كان الرسول ﷺ يمثله لم يكن من هذا النوع أبداً ويجب ألا يخلط به. أجل، إن مفهوم الحب في الإسلام حب متوازن يضم في إطاره الدنيا والآخرة كما هو شأنه في الأمور الأخرى كذلك.

---

(١) «**الشفاء**» للقاضي عياض ١/١٧

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٠/٢١٦؛ «**كنز العمال**» للهندي ٤/٢٤٤

لقد احتضن محمد ﷺ برسالته الإنسانية كلها بل الوجود كله بالحب، غير أن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو في بطون الكتب كما فعل الآخرون، بل سرعان ما انعكست في الحياة العملية وبكل معانيها العميقة وأبعادها الشاملة. علماً بأنه ما من فكر من أفكاره ﷺ أو عمل من أعماله إلا وأخذ طريقه إلى التطبيق العملي، ذلك لأنه كان رجل فكر وحركة وعمل.

إن الرحمة الواسعة لرسول الله ﷺ التي ضمت الوجود كله بإخلاص وجدت طريقها إلى التطبيق. لأنها كانت معنى منبعثاً بكل تجرد وإخلاص من قلب الوجود كله، فمثلا نراه يعبر عن شفقته على الحيوان بمثالين حيين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حارٍّ يُطِيف ببئرٍ، قد أَدْلَعَ لسانَه من العطَش، فنزعَتْ له بِمُوقِها فغُفِر لها.»(١)

ثم يروي ﷺ حادثة مقابلة لذلك: «عُذِّبتْ امرأةٌ في هرّة سجنتْها حتى ماتت فدخلت فيها النارَ، لا هي أطعمتْها ولا سقتْها إذ حبستْها، ولا هي تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض.»(٢)

لقد جاء رسول الله ليبلغ رسالة الرحمة هذه، فقد كان المنهلَ العذب المورود، فمن جاءه وجد الرحمة عنده، ومن شرب ماء الحياة من يده فقد حصل ووصل إلى الخلود المعنوي. فيا ليت الذين سيقفون أمام حوض الكوثر بقدَر ولطف من الله تعالى يعلمون قدره وفضله ﷺ حق العلم. ولكي لا يبقى

---

(١) **البخاري**، الأنبياء، ٥٤؛ **مسلم**، السلام، ١٥٤

(٢) **البخاري**، المساقاة، ٩؛ **مسلم**، السلام، ١٥١؛ **الدارمي**، الرقاق، ٩٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٠٧/٢

ما قلناه مفهوماً مجرداً فإنني أود تقديم أمثلة ملموسة، غير أنني أود قبل هذا لفت انتباهكم إلى ما يأتي:

٣- كان ذروة في كل شيء

هناك أناس يتقدمون الصفوف في بعض المسائل، ولكنا نجدهم في أواخر الصفوف في مسائل ومجالات أخرى.

فمثلا نرى القائد الموفق في ساحات القتال وفي فنون الحرب مهما بلغ في مهارته هذه فإنه لا يكاد يبلغ درجة راع بسيط في ساحات أخرى في الشفقة ورقة العاطفة والفهم، بل لكونه معتاداً على القتل فلن يكون إنساناً رحيماً في معظم الأحوال. ذلك لأن عواطفه وأحاسيسه قد فقدت حساسيتها ورقتها من كثرة ما اقترف من أعمال القتل فلا يشعر بأدنى عاطفة وهو يقوم بقتل إنسان. وقد يكون هناك سياسي ناجح في ميدان السياسة، ولكنك قد تراه مبتعداً عن الصدق بنسبة نجاحه هذا وقد لا يحترم حقوق الناس. أي أن ابتعاده عن الصدق وعن المروءة بنسبة نجاحه في ميدان السياسة يكون أمراً وارداً. وهذا يعني أن ارتفاعاً في ميدان مّا قد يستتبعه هبوط في ميدان آخر.

كما تستطيع مشاهدة كيف أن الإنسان الذي افتتن بتيار الوضعية (Positivism) فأصبح يجري وراء إجراء التجارب على كل شيء .. وكيف أن الحياة الروحية والقلبية لمثل هذا الرجل لا تتجاوز خط الصفر. بل هناك أشخاص وصلوا بعقولهم إلى "قمة إفرست". ولكنهم في حياتهم القلبية والروحية تراهم هابطين إلى مستوى "البحر الميت" "بحيرة لوط". فكم من شخصٍ انساب عقلُه إلى عينيه فلا يرى شيئاً سوى المادة، يقف ذاهلاً أحمق

أمام منطق الوحي، قد عميت عيناه عن رؤية الحقيقة. من هذا الشرح القـــصير نعرف أن هناك أشخاصاً ينجحون في ساحات وميادين معينة ولكنهم يفشلون في ساحات وميادين أخرى أكثر أهمية. أي أن الصفات المتناقضة الموجـــودة في الإنسان تعمل إحداها ضد الأخرى. فعندما تتوسع صفة ما وتقوى يكون هذا ضد صفات أخرى، وعندما تنمو إحداها وتقوى تضمر الأخرى وتضعف.

ولكن هذا الأمر غير وارد بالنسبة لرسول الله ﷺ، فهو إلى جانب كونه محارباً كان صاحب شفقة عظيمة.. كان سياسياً ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة وقلب كبير.. وبينما كان يعطي أهمية للأمور الملموسة وللتجارب فإنه كان ذروة في حياة الروح وفي حياة القلب. ويمكن العثور على أمثلة كثيرة بهذا الصدد في معركة أُحد. ففي تلك المعركة استشهد عمه حمزة رضي الله عنه الذي كان يراه شـــقيق نفسه. لم يُستشهد فقط بل مزق جسده تمزيقاً.[1] كما مزق جسد ابن عمته عبد الله بن جحش تمزيقاً.[2] وشج رأسه المبارك، وكسرت أسنانه وغطى الدم جسده الشريف؛[3] وبينما كثّف أعداؤه الهجوم عليه جاهدين للوصول إليه لقتله كان هذا الإنسان العظيم فوق كل عظمة فاتحاً يديه يبتهل إلى الله تعالى قائلاً: «اللّهم اغفـــر لقومي فإنهم لا يعلمون.».[4] فما أعظم وما أروع هذه الشفقة من شخص يحاول أعداؤه قتله فلا يدعو عليهم... بل يبتهل لله تعالى أن يغفر لهم.

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٢٣

(٢) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٠٣/٣

(٣) **البخاري**، المغازي، ٢٤؛ **مسلم**، الجهاد، ١٠٠، ١٠١

(٤) **البخاري**، الأنبياء، ٥٤؛ **مسلم**، الجهاد، ١٠٤، ١٠٥

حتى فتحِ مكة لم يبق في يد أعدائه أيُّ وسيلة للإيذاء لم يجربوهـــا معـــه و لم يوجهوها نحوه... تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة علـــى جدار الكعبة؛ وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعاً وشراء وعدم التـــزوج مـــن بناتهم أو تزويج بناتهم لهم... وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة.. و لم يكتفوا بهذا بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أمـــاكن أخـــرى بعيـــدة.. و لم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان.. وفي معارك بدر وأُحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية.. وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهـــدة ذات شروط قاسية. ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم..

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التـــاريخ المملـــوء عـــداوة وبغضا..؟ لقد قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء» ولولا أنني أخذت هذا الدرس منه لما كنت قد تصرفت هكذا لو كنت في موقعه، ولا أشك أنكم تشاطرونني رأيي هذا. ولكنه يدخل مكة على مركبه والدرع على صدره والمغفر علـــى رأســـه والسيف في يده والنبال على ظهره.. ولكنه مع كل مظاهر لباس الحرب هـــذه كان أنموذجاً للشفقة والرأفة.. سأل أهل مكة: «ما ترون أني فاعـــل بكـــم؟» فأجابوه: "خيراً أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم." فقال لهم ما قاله يوسف عليه السلام لإخوته:

﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ الْيَومَ يَغفِرِ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢).[١]

لم يقصر في حياته أبداً من ناحية اتخاذ الحيطة. وليس هناك من استطاع مثله الجمع بقوة بين اتخاذ التدبير والتوكل. عندما خرج بأصحابه إلى بدر امتحنهم.. كان كل منهم كالطود الشامخ لا يخاف الوقوف وحده أمام جيش بكامله، وعندما قال له سعد بن معاذ -وفي رواية: سعد بن عبادة-: "يا رسول الله! والذي نفسي بيده لو أمرتَنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَاد لفعلنا ما تخلَّف منا أحد."[٢] فإنه كان يعطي أنموذجا لهؤلاء.. ثم ما أكثر المعاني التي يحملها قوله للرسول ﷺ "...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطعْ حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ من شئت وخذ من أموالنا ما شئت."[٣]

كان المقاتلون متهيئين فكأن كل واحد منهم سعد بن معاذ، ومع ذلك لم يقصر رسول الله ﷺ في اتخاذ التدابير، بل كان يهيئ كل الوسائل والأمور الضرورية للحرب. وبعد هذا الدعاء الفعلي -لأن اتخاذ الوسائل دعاء فعلي- رفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الله من كل قلبه ضارعاً وملتجئاً إليه... واندمج في دعائه بحيث كان ردائه يسقط دون أن يشعر بذلك و لم يتحمل أبو بكر الذي كان يراقب هذا المنظر، فكان يعيد عليه رداءه ويقول: "يا نبيّ الله!

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٥٥؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٤/٣٤٤

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٣٢١، ٣٢٢؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢/٢٦٦

(٣) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣/٣٢٢

كفاك مناشـــدتك ربك، فـــإن الله منجز لك ما وعدك."[1]

فمثل هذا المستوى الرفيع من التوكل على رب العالمين بعد اتخاذ كل هذه التدابير صفة تميز بها ذلك الإنسان... إنسان الذروة ﷺ، وتفرد بها.

٤- الرحمة العالمية

لقد ذكرت في بداية هذا الموضوع أن رسول الله ﷺ كان مثال الرحمة التي استفاد منها الكل، المؤمن والكافر والمنافق. يستفيد المؤمن من رســـول الله ﷺ لأنه يقول بأنه أقرب للمؤمنين من أنفسهم. صحيح أن المفسرين يقولـــون إن الرسول ﷺ يجب أن يكون أعز وأحب إلى المؤمنين من أنفـــسهم اســـتناداً إلى الآية الكريمة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤمِنِينَ مِنْ أَنفُـــسِهِم﴾ (الأحـــزاب: ٦). ولكـــن الحقيقة أن المعنيين متقاربان من بعضهما، فنحن نحب رسول الله ﷺ أكثر مـــن أنفسنا، والرسول ﷺ يحب من يحمل له هذه العاطفة بالحب نفسه، ذلك لأنـــه رجل مروءة كبير.

هذا حب عقلي ومنطقي، ومع أن لهذا الحب جانبه العاطفي إلا أن بُعد المعرفة وعمق المنطق يشكلان الجانب الأساسي فيه. ولو تم بحث هذا الموضوع وتـــسليط الأضواء عليه، تجذر هذا الحب عند الإنسان وقوي إلى درجة أن يسير وراء ذكره كما سار "قيس" وراء ليلاه، وكلما ذكر اسمه أحس كأن دخاناً يخرج من أنفـــه، ويعد حياته التي انقضت دون رؤيته كأنها حياة منفى وهجر. أجل، إن رسول الله

---

(١) **مسلم**، الجهاد، ٥٨؛ **الترمذي**، تفسير سورة (٨) ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٢/١؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٧٩/٢؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٣٢/٣

ﷺ أقرب إلينا من أنفسنا، كيف لا ونحن نرى الكثير من الشرور والآثام من أنفسنا، بينما لم نر منه سوى الكرم والرحمة والخير والشفقة والمروءة، فهو يمثل الرحمة الإلهية، لذا فلا شك أنه أقرب إلينا من أنفسنا.

وعندما يقول الرسول ﷺ بأنه أقرب إلى المؤمنين من أنفسهم فقد صدق، فالله تعالى يقول ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤمِنِينَ مِنْ أنفُسِهِم﴾ (الأحزاب: ٦)، ويقول الرسول ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دَيْن فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[1] وبداية هذا الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟» فإن حدث أنه ترك وفاء صلّى عليه، وإلا قال: «صلّوا على صاحبكم.» فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[2] وكون الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الدنيا والآخرة يعد رحمة، وناحية الرحمة هذه مستمرة إلى الأبد.

كان رحمة للمنافقين أيضاً. فبسبب هذه الرحمة الواسعة لم ير المنافقون العذاب في الحياة الدنيا، فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق التي تمتع بها المسلمون. ولم يقم رسول الله ﷺ بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبداً مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم، حتى إنه

---

(١) **البخاري**، الكفالة، ٤؛ **مسلم**، الفرائض، ١٤

(٢) **البخاري**، الاستقراض، ١١؛ **مسلم**، الفرائض، ١٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣١١/٣

أخبر حُذيفة ﷺ بذلك.[1] لذا، كان عمر بن الخطاب ﷺ يراقب حُذيفة، فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك.[2]

ومع ذلك فلم يهتك الإسلام سرهم، فبقوا بين المؤمنين، وانقلب كفرهم المطلق إلى ريبة وشك على الأقل، فلم يحرموا من لذائذ الدنيا، لأن الإنسان الذي يعتقد أنه سيفنى ويذهب إلى العدم لا يمكن أن يهنأ في عيشه، ولكن إن انقلب كفره إلى شك وشبهة فإنه يقول في نفسه: "ربما توجد هناك حياة أخروية"، عند ذلك لن تكفهر حياته تمام الاكفهرار. ومن هذا المنطلق كان رسول الله ﷺ رحمة لهم بهذا المعنى.

كما استفاد الكفار من رحمة رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها هلاكاً جماعياً، بينما رفع الله تعالى بعد بعثة نبينا هذا الهلاك الجماعي، فاستفاد الناس من خلاصهم من مثل هذا العذاب، فكان ذلك نعمة دنيوية بالنسبة للكفار. يخاطب الله تعالى نبيه في هذا الخصوص فيقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِم وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣).

أجل، فمن أجل حرمة النبي ﷺ رفع الله تعالى العذاب والهلاك الجماعي. وبينما كان النبي عيسى عليه السلام يقول لله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ﴾ (المائدة: ١١٨) نرى أن الله تعالى يقول لنبيه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، فتأمل قدر النبي ﷺ ومنزلته عند الله، أي طالما أنت تعيش بينهم فلن يعذبهم الله،

---

(١) **البخاري**، فضائل أصحاب النبي، ٢٠؛ «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٤٦٨/١

(٢) «**أسد الغابة**» لابن الأثير ٤٦٨/١

طالما أن ذكرك موجود، وتلهج به الألسنة، وطالما أن الناس يتبعون طريقك فلن يعذبهم الله ولن يهلكهم. وإحدى الجهات التي استفاد منها الكفار من رسول الله ﷺ هو أن الرسول ﷺ يقول: «إني لم أُبعث لعّاناً، وإنما بُعثت رحمة»،[1] أي إنني بعثت رحمة من قبل الله تعالى للناس أجمعين، و لم أبعث لكي أستمطر اللعنة والبلايا والمصائب على الناس. ولهذا تمنى رسول الله ﷺ اهتداء ألدّ أعداء الإسلام، وبذل كل جهوده ومساعيه لتحقيق هذا.

حتى جبريل عليه السلام قد استفاد من النور الذي جاء به الرسول ﷺ، فقد سأله رسول الله ﷺ يوماً وهو يشير إلى القرآن: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: نعم، كنت أخشى العاقبة، فأمنت لثناء الله ﷻ عليّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢٠-٢١)".[2]

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «أنا محمد وأحمد والمقفّى[3] وأنا الحاشر[4] ونبي التوبة ونبي الرحمة.»[5] وباب التوبة مفتوح حتى يوم القيامة؛ لأن رسول الله نبيُّ الرحمة والتوبة، ونبوته وحكمه ماض إلى يوم القيامة.

كان إذا رأى طفلاً أو صبياً يبكي جلس وبكى معه، إذ يشعر في وجدانه ألم الأم وعذابها. ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه نجد أنموذج هذه الرحمة وهذه

---

(١) **مسلم**، البر، ٨٧

(٢) «**الشفاء**» للقاضي عياض ١/١٧

(٣) **المقفّي**: أي خاتم الأنبياء. (المترجم)

(٤) **الحاشر**: أي ليس بينه وبين الحشر نبي آخر في معنى، وفي معنى آخر أن الله سيحشر الناس أمامه يوم القيامة. (المترجم)

(٥) **مسلم**، الفضائل، ١٢٦؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤/٣٩٥

الشفقة التي لهجت بها الألسن إذ يقول رسول الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وَجْد أمه به.»[1]

كانت صلاة رسول الله ﷺ طويلة، ولاسيما النوافل منها، إذ كانت تتجاوز طاقة الصحابة، ولكنه عندما يقف للصلاة يريد إطالتها ويسمع بكاء طفل في أثنائها إذ به يخفف صلاته ويتَجوَّز فيها، ذلك لأن النساء كن يقفن للصلاة خلف رسول الله ﷺ أي يشتركن في أداء صلاة الجماعة خلفه، فخوفاً من أن تكون أم ذلك الطفل موجودة بين المصليات فإنه كان يخفف صلاته، ويسرع بها لكي يريح قلب تلك الأم. كان في كل مسألة أنموذجا للشفقة؛ فبكاء طفل كان يؤلمه، بل كان يبكيه. ولكن المهم هو أنه بكل شفقته الواسعة الباهرة، ورحمته كان متوازنا. فمثلاً رحمته الواسعة هذه لم تكن حائلة أمامه في تطبيق الحدود الشرعية مهما كان شكل هذه الحدود وكيفيتها.

جاءه أحد الصحابة وهو ماعز ﷺ قائلاً له: "طهِّرْني يا رسول الله." فأعرض عنه رسول الله ﷺ قائلاً له: «ويحك، ارْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه»، إلا أن ماعزاً كان يصر على التطهر ويطلبه. وعندما كرر طلبه للمرة الرابعة سأله الرسول ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال ماعز: من الزنا يا رسول الله. كان ماعز متزوجا، أي محصنا، وعقاب الزنا للمحصن هو القتل رجماً. ولكي يبقى هذا الأمر منقوشاً في الأذهان حتى يوم القيامة فقد التفت إلى من حوله سائلاً: «أبه جنون؟» فأُخبر أنه ليس بمجنون. وفي رواية: ما نعلمه إلا وفيّ العقل، من صالحينا فيما نرى. فسأل رسول الله ﷺ: «أشَرب خمراً؟» فقام رجل

(١) **البخاري**، الأذان، ٦٥؛ **مسلم**، الصلاة، ١٩٢

فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. فقال رسول الله ﷺ لماعز: «أزَنيت؟» فقال: نعم. فأمر برجمه، فسيق ماعز إلى المصلى لرجمه، فلما أصابته الحجارة أدبر يشتد، فلقيه رجل بيده لحي جمل فضربه فصرعه، فذُكر للنبي ﷺ فراره فقال: «فهلاَّ تركتموه.»

فكان الناس فيه فرقتين، فقائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئة، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم ثم جلس فقال: «استغفروا لماعز بن مالك.» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لَوَسعتهم.»[1] كان رسول الله ﷺ رجل موازنة، ولو فرضنا المستحيل وقلنا إن ماعزاً عاد للحياة، واقترف الذنب نفسه لكرر الرسول ﷺ العقاب نفسه.

كان لدى بني مقرّن خادمة، فلطمها أحدهم، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ باكية، فاستدعى الرسول ﷺ مالكها قائلاً له: «أَعتِقوها»، فقالوا ليس لهم خادم غيرها. قال: «فليستخدموها، فاذا استغنوا عنها، فليخلّوا سبيلها.»[2] أجل، فلو بقي إثم هذه اللطمة الظالمة ليوم الحساب لكانت اللطمات هناك أشد وأقسى، لذا كان العتق هو بديل هذه اللطمة لكي تكون ديتها يوم القيامة عن عذاب جهنم.[3]

---

(١) **مسلم**، الحدود، ١٧-٢٣؛ **البخاري**، الحدود، ٢٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٣٨/١، ٤٥٠/٢

(٢) **مسلم**، الأَيْمان، ٣١، ٣٣؛ **أبو داود**، الأدب، ١٢٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٤٧/٣

(٣) **مسلم**، الأَيْمان، ٣٠

٥- الأطفال

أما شفقته على أطفاله فكان أمراً مختلفاً تماماً، فكثيراً ما ذهب إلى الأسرة التي ترضع ابنه إبراهيم حيث يأخذه في حجره طويلاً ويقبله ويعطف عليه.[١]

وعندما رأى الأقرع بن حابِس التميمي رسول الله ﷺ وهو يقبل الحسن والحسين ﷺ ويأخذهما في حضنه، قال: "إنّ لي عشرة من الولد، ما قبَّلتُ منهم أحداً"، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَـرْحم لا يُـرحم.»[٢] وفي حديث آخر: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.»[٣] وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبّلهم. فقال النبي ﷺ: «أوَ أملك لك إن نـزع الله من قلبك الرحمة.»[٤]

وكما كان رسول الله ﷺ يعطف على أقربائه، فإنه كان يعطف كذلك على أصدقائه القريبين منه والبعيدين عنه. وفي رواية لابن عمر ﷺ قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله قال: «قد قضى؟» قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا. فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذِّب بدمع

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ١١٢/٣

(٢) **البخاري**، الأدب، ١٨؛ **مسلم**، الفضائل، ٦٥

(٣) **الترمذي**، البر، ١٦؛ **أبو داود**، الأدب، ٥٨

(٤) **البخاري**، الأدب، ١٨؛ **مسلم**، الفضائل، ٦٤؛ **ابن ماجه**، الأدب، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٦/٦

العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا»، وأشـــار إلى لسانه.[1]

أجل، إن الله لا يعذب بسبب دمع العين، على العكس من ذلـــك فهنـــاك دموع يرفع الله بسببها العذاب؛ ففي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرُس في سبيل الله.»[2] إحدى العينين عين الرهبان، والأخرى عين الفرسان؛ ففي الليل كانوا رهبانـــاً يذرفون الدموع في عبادتهم وسجودهم، وفي النهار كانوا فرســـاناً يـــصولون ويجولون ويهاجمون الأعداء كالأسود. دموع هؤلاء كانت دمـــوع المـــؤمنين الحقيقيين، والصحابة كانوا من هذا النوع من المؤمنين: رهبان في الليل فرسان في النهار.

عندما أُخبر رسول الله ﷺ بوفاة عثمان بن مظعون أسرع ﷺ إلى بيته، فقـــد كان عثمان رضي الله عنه من الصحابة القريبين إلى قلبه، فبكى النبي ﷺ عليه بكاء كـــثيراً، ولكن عندما قالت زوجة عثمان رضي الله عنه: رحمة الله عليك أبا الـــسائب، فـــشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمـــه؟ والله مـــا أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي.»[3]

أجل، لقد كان رجل توازن؛ فشفقته وبكاؤه لم يكن يمنعه من تصحيح خطأ. فالدموع التي سكبها على أحد أصحابه الأحبة ما كانت لتحول بينه وبين تصحيح كلام مبالغ فيه أو خاطئ، فالوفاء شيء والحق شيء آخر. كان يزور شهداء أحد

---

(١) **البخاري**، الجنائز، ٤٥؛ **مسلم**، الجنائز، ١٢

(٢) **الترمذي**، فضائل الجهاد، ١٢

(٣) **البخاري**، الجنائز، ٣

كل أسبوع[1] ولكنه لم يكن يقول: لقد طِرتم إلى الجنة. ولا يقولن أحد منا: إن لم يذهب هؤلاء إلى الجنة فمن غيرهم..!؟ نعم هذا هو الأمر.

ثم ألا تكفي الرتبة والمقام الذي أعطاه لكافل اليتيم دليلاً على شفقته الواسعة؟ انظروا ماذا يقول ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، ثم أشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً.[2] فكأن رسول الله ﷺ يريد أن يقول بأنه لن يدخل أحد بيني وبين كافل اليتيم في الجنة.

٦- الشفقة على الحيوانات أيضاً

كانت شفقته تشمل الحيوانات أيضاً، فقد مر سابقاً كيف أن امرأة دخلت النار بسبب هرة، وكيف أن بغيّاً دخلت الجنة بسبب سقيها الماء لكلب ظامئ. وهنا أنقل لكم حادثة أخرى بهذا الخصوص كخاتمة للموضوع:

عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذْنا فرخيْها، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تَفْرُش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فَجَع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها»[3] أجل، لقد كانت شفقته تحتضن الحيوانات أيضاً. ثم ألا نتذكر أن الله تعالى عاتب أحد أنبياءه السابقين بسبب بيت نمل؟ إذ قام هذا النبي عن قصد أم

---

(١) **البخاري**، المغازي، ٢٧؛ **مسلم**، الفضائل، ٣٠؛ **النسائي**، الجنائز، ١٠٣؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ٢/٢٠٥؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/٣٠٠

(٢) **البخاري**، الطلاق، ٢٥، الأدب، ٢٤؛ **مسلم**، الزهد، ٤٢

(٣) **أبو داود**، الأدب، ١٦٤، الجهاد، ١١٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١/٤٠٤

عن دون قصد بحرق بيت نمل، فما لبث أن جاءه تأنيب من الله تعالى.[1] ونبينا الذي نقل لنا هذه الحادثة وأمثالها من الحوادث الأخرى أيمكن أن يتصرف إلا هكذا؟ وظهر فيما بعد في أمته أشخاص عندما يُمدحون يقال عنهم: إنه لا يؤذي حتى نملة. هؤلاء الأشخاص كانوا يعلقون أجراساً صغيرة على أقدامهم لكي تبتعد الحشرات عن طريقهم عند سماعها لصوت الأجراس، ولا تنسحق تحت الأقدام. يا إلهي! ما هذه الشفقة العميقة والشاملة! وما هذا الأنموذج الرائع للرحمة! أجل، حتى النمل لم تخرج عن دائرة رحمته ﷺ و لم تستثن منها. وهل يكون في مقدور إنسان يتحرج عن سحق نملة القيام بظلم الناس الآخرين؟ كلا، لا يستطيع هذا عن علم وعن قصد أبداً.

عندما كان ﷺ في "مِنًى" خرجت حية من بين بعض الصخور، فأسرع بعض الصحابة لقتلها، غير أنها استطاعت أن تنسلّ بين شقوق الصخور، فقال رسول الله ﷺ الذي كان يراقب المنظر عن بُعد: «وقاها الله شرّكم، ووقاكم شرّها.»[2]

فالرسول كان يرى فيما هم به الصحابة شراً، والمقتول وإن كان حية إلا أن لها مكاناً أيضاً في نظام هذه الدنيا، فأي قتل غير ضروري سيضر بالتوازن البيئي، ويؤدي إلى أضرار لا يمكن تلافيها. والحقيقة أن إعلان الحرب على الحشرات باسم الزراعة والمحافظة عليها، يعد جريمة بالنسبة للتوازن البيئي، والغريب أن هذه الجرائم ترتكب اليوم باسم العلم.

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ١٥٣؛ **مسلم**، السلام، ١٤٨

(٢) **البخاري**، جزاء الصيد، ٧؛ **مسلم**، السلام، ١٣٧؛ **النسائي**، الحج، ١١٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٨٥/١

يروي ابن عباس ﷺ: أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها، وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: «هلاَّ حددتَ شفرتك قبل أن تضجعها.»[1] كان هذا بمثابة عتاب لذلك الشخص.

يروي عبد الله بن جعفر ﷺ: جاء بعير يشتد حتى سجد لرسول الله ﷺ، ثم قام بين يديه، فذرفت عيناه، فقال رسول الله ﷺ: «من صاحب هذا البعير؟» قالوا: فلان. فقال «ادعوه، فأتوا به»، فقال له رسول الله ﷺ «يشكوك.» فقال: يا رسول الله، هذا البعير كنا نسنو عليه منذ عشرين سنة، ثم أردنا نحره. فقال رسول الله ﷺ: «شكا ذلك، بئسما جازيتموه، استعملتموه عشرين سنة حتى إذا أرق عظمه، ورق جلده أردتم نحره بعينه.» قال: بل هو لك يا رسول الله. فأمر به رسول الله ﷺ فوجه نحو الظهر، أي الإبل.[2]

لقد كانت رحمة رسول الله ﷺ وشفقته تتجاوز بكثير الرحمة المدعاة من قبل ما يطلق عليهم اليوم اسم "أنصار الإنسانية"، ولكنه استطاع أن يصون رحمته الواسعة هذه من الإفراط ومن التفريط أيضاً، وذلك بفضل فطنته الكبيرة.

أجل، لم يتهاون أبداً مع أي شر أو إثم تحت اسم المرونة أو الرحمة أو المسامحة، ولم يدع له فرصة لوضع بنيانه ومد جذوره، ذلك لأنه كان يعرف جيداً أن أي مسامحة لمجرم أثيم ذي روح متوحش تعني الاعتداء على حقوق آلاف من الأبرياء. ونعترف بكل أسى بأن أيامنا الحالية مملوءة بمثل هذه الاعتداءات أكثر من أي عهد مضى. فقد رأينا بأم أعيننا إلى أي حال جرّنا

---

(١) «**المستدرك**» للحاكم ٤/٢٣١، ٢٣٣

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/٩؛ «**الخصائص الكبرى**» للسيوطي ٢/٩٥

هذا التسامح مع الفوضويين ومع أعداء عقائدنا وتراثنا وماضينا، ولا نـــزال نرى ذلك ونشاهده، وقلوبنا تتفطر ألـــماً. فإن لم تستخدم الرحمة والـــشفقة بشكل متوازن أدى ذلك إلى نتائج وخيمة جداً في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع ككل، بينما لا يمكن الإشارة إلى أي مثال على مثل هـــذا الاســـتعمال السلبي للرحمة عند رسول الله ﷺ.

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يحب الناس إلى درجة يكاد يتلف فيها نفسه، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الأمر في بعض المواضع إذ يقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـــاخِعٌ نَفْسَكَ[1] عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف: ٦). هـــذا علماً بأنه عندما اقتربت منه نسائم النبوة كان معتكفاً في مغارة، وجاءه الوحي لأول مرة هناك. إذن، فقد كان يحب الناس، ونذر نفسه من أجل هذه الغاية.

والحقيقة أن مفهوم الجهاد عنده ﷺ كان ينبع من منبع الرحمة. أجل، قـــد يلحق بعض الضرر الدنيوي بالناس بسبب جهادهم، ولكن مـــا يربحونـــه في حياتهم الأبدية كبير إلى درجة أن هذا الضرر يعد صفراً بجانبه؛ فرسول الله ﷺ كان يفتح بحد سيفه الطرق المؤدية إلى الجنة. وهذا بُعد آخر من أبعاد الرحمـــة التي بعث بها للعالمين.

د. الحلم

حاولنا في الفصل السابق بيان كيف أن رسول الله ﷺ كان أصفى مـــرآة وأجلاها للرحمانية وللرحيمية الإلهية، وكيف أنه استطاع بفطنته الرائعة إقامـــة

---

(١) **باخع نفسك**: قاتلها ومهلكها من شدة الغم. (المترجم)

التوازن في مجال الرحمانية والرحيمية. ومع أنه يصعب تقصي كل هذه الحقائق وإعطائها حقها إلا أننا حاولنا إعطاء صورة واضحة وإن كانت مختصرة. وهنا سنحاول تقديم جانب آخر، ومتعلق أيضاً بموضوع رحمته، وهو حلمه ﷺ وخلقه اللين.

الحلم مفتاح ذهبي آخر أُهدي للنبي ﷺ، ففتح به قلوباً كثيرة وتربع فيها. فلولا حلمه هذا لصدمت الخشونة الكثير من النفوس التي لا تملك مرونة، وجعلتهم في صفوف أعداء الإسلام، ولابتعدوا عن النبي ﷺ. ولكن حلمه ﷺ حال دون هذا، فأقبل الناس أفواجاً إلى الإسلام. أجل، لقد كان الحلم من أهم الصفات التي جهزه الله تعالى بها، والتي تعكس رحمة الله تعالى عليه، والقرآن الكريم يشرح هذا الأمر فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

كما نفهم من القرآن، فإن الحلم ينبع من رحمة الله تعالى، ولو كان رسول الله ﷺ فظّاً غليظ القلب – إذ لم يكن كذلك– لانفض الناس من حوله. فكانت من رحمة الله الواسعة أن جعله ليِّن الطبع إلى درجة أن الأيدي التي امتدت بالأذى إليه، والتي توقعت رد فعل عنيف لم تجد عنده سوى اللين والعطف، فكيف بالذين أحبوه من أعماق قلوبهم!

نزلت هذه الآية بعد معركة أُحد، فمع أن رسول الله ﷺ شرح لهم تكتيك الحرب بتفاصيلها إلا أن البعض منهم لم يفهموا الأوامر المعطاة لهم حق الفهم، فتركوا مواضعهم قبل صدور الأوامر إليهم بذلك، فكانت النتيجة الهزيمة المؤقتة

للمسلمين. صحيح أنها لم تكن هزيمة تامة، ولكنها لم تكن نصراً تاماً أيضاً. هزت شائعة مقتل رسول الله ﷺ قلوب كثير من المسلمين وأفزعتهم، فنرى مثلاً الصحابي أنس بن النضر يقول للمسلمين: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ."[1] فذهبوا وقاتلوا حتى استشهدوا.. كان هذا هو طريقهم.. الموت في السبيل الذي مات فيه الرسول الله الكريم ﷺ.

لو انصاع المسلمون لأوامر النبي ﷺ لكان من المحتمل أن يصلوا إلى النصر، ولكن إظهارهم أقل انحراف عن أمره غيَّر النتيجة كل هذا التغيير المفجع. والآن لنقف هنا لنتأمل قليلاً: لو كان على رأس هذه الجماعة زعيم آخر غير رسول الله ﷺ فكيف كان سيتصرف أمام هؤلاء الناس الذين لم يطيعوا الأوامر الصادرة إليهم وخالفوها؟ أكان يتصرف معهم وكأن شيئاً لم يحدث؟ ثم إنه كان زعميهم ماديّاً وروحيّاً. أجل، فكل خير أو فضيلة عرفوها عن طريقه، وشاهدوا مئات المرات كيف أنه يصدر القرار الصائب في كل مسألة.. مثل هذا الشخص أصدر إليهم تعليمات مشددة ألا يبرح أحدهم مكانه، وهم الآن يقاسون عاقبة مخالفتهم له. فبجانب كل هؤلاء الشهداء لم يسلَم تقريباً أحد من الجروح، حتى رسول الله ﷺ فقد شج رأسه، وكسرت سنه، وسال الدم على جسده. أجل، لو كان قائد آخر غير رسول الله ﷺ في مكانه آنذاك أما بدت على وجهه علامات الغضب؟ ألم يكن في الأقل يعاتبهم قائلاً لهم: ألم أقل لكم أن تعملوا كذا وكذا؟ ليذكرهم بأخطائهم؟ ولكن الآية الكريمة السابقة تخاطبه، وتضع سدّاً أمام ورود هذه الخواطر في نفسه.

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٨٨/٣؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٣٦/٤

كانت هذه اللحظة لحظة دقيقة جداً وحساسة، فأي كلام أو إشارة أو غمز كان سيؤثر لا محالة تأثيراً مضاعفاً، لذا كان من الضروري تجنب أي تصرف يمكن أن يجرح قلوبهم أو يخدش نفوسهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩). هذا علماً بأن الصحابة لم يغيروا سلوكهم أبداً مع رسول الله ﷺ، إذ بقوا ملتفين حوله يبذلون له مهجهم.

كان خلقه القرآن،[1] والقرآن هو الذي يعلمنا هذا الخلق الإلهي؛ ألا نرى أن الله تعالى يستمر في إعطاء الرزق للناس حتى وإن عصوه وتمردوا عليه؟ فمع أن بعضهم يفترون عليه فيشركون به أو يدعون له ابناً أو زوجة فإن الله تعالى يسبغ عليهم بفضل رحمانيته أفضالاً عديدة. فالشمس تشرق كل يوم بنورها ودفئها، والسحب تهب لنجدتهم بأمطارها، والنباتات بأنواعها مستمرة في إعطاء ثمراتها اللذيذة، ومع ذلك فهؤلاء يقابلون كل هذه النعم والأفضال بجحود لا يسعه العقل. أجل، إن الناس لا يحمدون ولا يشكرون جزءاً من مليون جزء من نعم الله التي أسبغها عليهم، ولكن الله تعالى لا يعاقبهم حالاً لأنه حليم، فلا يغير الله تعالى سنته من جراء هذه الأخطاء البشرية، لذا فإنه يستمر في الإنعام وفي الرزق. والرسول ﷺ متخلق بخلق الله، إذ يعكس هنا صفات الله تعالى وأسماءه الحسنى، فالقرآن الكريم يقول عنه إنه ﴿بِالْمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٧)، ليس هو فقط، بل جده إبراهيم عليه السلام كذلك، فعندما يصفه القرآن الكريم يقول عنه: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود: ٧٥).

---

(١) **مسلم**، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ **ابن ماجه**، الأحكام، ١٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٩١/٦

كانت صفة الحلم في إبراهيم عليه السلام ذروة لا يمكن بلوغها، ذلك لأنه كان يعطف حتى على الذين رموه في النار وحاولوا حرقه، وكان يخشى أن يصيبهم بلاء من الله تعالى، لذا كان يسهر الليل حتى الصباح وهو يتأوه ويتألم لهم.. وكان منيباً متوجهاً إلى الله تعالى في كل آنٍ مقبلاً عليه، واقفاً أمام باب الله بقلب خاشع وعين دامعة. كان رسول الله ﷺ يشبه نفسه دائماً بإبراهيم عليه السلام.[1] أجل، لقد كان مثل جده إبراهيم في حلمه ولينه.

والحلم أساس مهم بالنسبة لدعاة الحق، إذ على الإنسان أن يقابل بالحلم حتى الأناس الذين ملئوا حقداً وكرهاً. فحُسين بن منصور الحلاّج غَفر لمن قطع يديه ورجليه. أما داعي القرن العشرين[2] الذي نفي من بلده وكأنه مجرم شرير، والذي قضى حياته متنقلاً من سجن إلى سجن، فإنه لم يدعُ على من ظلمه، بل دعا الله أن يغفر لهم، وأن ينقذ إيمانهم، فضرب لهم مثلاً رائعاً في الحلم، فيا ليت الذين أتوا من بعده استطاعوا فهم سحر حلمه هذا.

لنرجع إلى النبي إبراهيم عليه السلام مرة أخرى: رماه خصومه في النار، ولكن الله تعالى أمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه: ﴿قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَرداً وَسَلاَماً عَلَى إبرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩)، أي لا تكوني عليه حارة ولا باردة، بل سلاماً. ذلك لأن إبراهيم كان قد زين نفسه هكذا أمام العالم.. لا يغضب عليهم ولا يقابلهم ببرود.. كان إنسان "سلام"، لذا لقي المعاملة نفسها من قبل الله تعالى. وما كان في الإمكان تصور أن يقوم إبراهيم عليه السلام بالتخلق بخلق الله تعالى ثم

---

(١) **البخاري**، الأنبياء، ٤٢؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٧٢

(٢) المقصود هو بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف كليات رسائل النور. (المترجم)

يلقى معاملة أخرى منه تعالى. كلا، فالسلام اسم الله تعالى، لذا، أصبحت النار "سلاما" على إبراهيم.

خلق الحلم هذا الذي بدأه إبراهيم عليه السلام أخذه النبي ﷺ وصعد به إلى الذروة. فعندما ملك كل القدرات التي تمكنه من القضاء على أعدائه السابقين قضاء مبرما لم يبتعد عن المروءة. ولو أراد معاقبة المذنبين فهل كان هناك من يقف في وجهه؟ كلا، على العكس من ذلك، فربما كان هناك المئات من أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الذين كانوا دائماً على أهبة الاستعداد لإزالة أي شيء يمكن إيذاء النبي ﷺ أو يكدر خاطره، وحاضرين على الدوام للإطاحة برأس من يقوم بذلك، ويطلبون منه الإذن لذلك، ولكنه ﷺ كان على الدوام يهدئ أصحابه ويدعوهم إلى الحلم.

في أحد الأيام افتروا على شرف زوجته وهو واثق من عفتها وشرفها. ولو أومأ إيماءة صغيرة إلى أي مسلم لطارت رؤوس عديدة من المنافقين، وما كان هناك مسلم يتأخر عن تنفيذ أمره. ومضت أيام وهو يبتلع كلاماً كالأشواك ولا يقول شيئاً.. ويشعر بعذاب كبير في قلبه ولكنه يصمت.. دام هذا حتى نزول الأيات التي برأت ساحة أمنا عائشة رضي الله عنها مع أن المسلمين كانوا ينتظرون خروج أي كلمة من بين شفتيه.

كان هناك أحياناً من يقف أمامه ويتصرف بخشونة معه، بل يسمعه كلمات جارحة. ولو أشار إشارة خفيفة بأصبعه لارتفعت مئات السيوف لقطع رأس ذلك الشخص، ولكنه كان قد عقد عزمه على مقابلة أمثال هذه التصرفات باللين وبالحلم على الدوام. كان يبذل عناية في عدم إخافة أي شخص أو ترويعه،

كيف لا وهو القائل: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً»،[1] وهو القائل: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح.»[2] فكيف يمكن أن يقوم مثل هذا الشخص بالاعتداء على حياة أي شخص ظلماً ودون وجه حق.

كان إنسان ذوق رقيق، لذا كان يتأثر جدّاً من التصرفات الخشنة أو الحمقاء التي يبديها البعض أمامه، ولكنه كان يقابلها ببحر حلمه، ويذيبها فيه، ويتصرف تجاهها باللين. هكذا كان اتساع عالمه الحسي والعاطفي، حتى أنه عند مرضه كان يقاسي أضعاف الآلام التي يقاسيها أي مريض آخر. فقد دخل عليه عبد الله بن مسعود وهو مريض، ومس يده فأحس وكأنها تشتعل، فقال: ''يا رسول الله! إنك لتوعَكُ وَعْكاً شديداً. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إني أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم.»[3] أجل، لقد كان النظام العصبي لرسول الله ﷺ حساساً جداً؛ فربما كان ألم شوكة يشاكها في أصبعه يعادل ألم سكين مغروز في جسد إنسان آخر، فقد تكون هذه الحساسية المعطاة له ضرورية في أداء رسالته. والأذى الذي يحسه مثل هذا الشخص الحساس أمام التصرفات الخشنة أو الحمقاء يكون أكثر من الأشخاص الاعتياديين. وأيّ شخص بهذه الحساسية يمكن أن يسبب مشاكل عديدة وعواصف كل يوم، غير أن الرسول ﷺ لم يعمل هكذا، فقد كان رجل حلم. هذا علما بأن حلمه كان متوازناً جدا، فكفر أي كافر كان يؤذيه جداً، ويكاد أن يبكيه، لذا كان يحاول عمل كل ما في وسعه لتوصيل أحدهم إلى الهداية. ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً

---

(١) **أبو داود**، الأدب، ٨٥؛ **الترمذي**، الفتن، ٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٦٢/٥

(٢) **البخاري**، الفتن، ٧؛ **مسلم**، البر والصلة، ١٢٦

(٣) **البخاري**، المرضى، ٣، ١٣؛ **مسلم**، البر، ٤٥؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٨١/١

بتنفيذ حد شرعي، فإنه لم يكن يتهاون فيه أبداً ومهما كان ذلك الشخص المطلوب إقامة الحد عليه قريباً إلى قلبه. هذا علماً بان العقاب الذي كان يوقعه بسبب الجرائم أو الذنوب المقترفة لم تكن من بينها الذنوب المقترفة بحقه، إذ كان على الدوام يصفح عمن يعتدي عليه، وليس هناك ذنب أو تجاوز تم ارتكابه في حقه ثم لم يصفح و لم يعف عنه.

وفي الحياة الدينية نلاحظ الأمر نفسه؛ فقد كان يختار لنفسه أشق الأمور، ويختار لغيره أهونها، حتى نه كان يصلي السنن في بيته لكي لا يثقل على أمته ولكي لا يعطي انطباعاً بأن هذه الصلوات فرض من الفروض. ثم إنه ما من إنسان كان يتحمل طول صلاة النوافل التي كان يصليها.

وكان أحياناً يواصل صومه، ففي هذه الأمور الصعبة التي لا يتحملها أحد غيره تراه وحده. هذا علما بأن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وأحد معاني هذا هو: أن الله تعالى أزال منذ البداية أيّ استعداد له لاقتراف أي ذنب أو معصية. وهذا يذكرنا بالحديث المتعلق بالمعراج حيث يخبرنا بأنه مر من خلال إجراء عملية معنوية له[1] إذ يذكر قيام الملائكة بشق صدره وغسل جوفه، وهذا يعني على الأغلب تطهير نفسه، لذا لم ير صدور أي فعل يعد إثماً أو معصية من قبل رسول الله ﷺ، ومع ذلك كان يستغفر أكثر من سبعين مرة كل يوم،[2] لقد كان إنسان تواضع ومراقبة ومحاسبة للنفس.

---

(١) **البخاري**، التوحيد، ٣٧؛ **مسلم**، الإيمان، ٢٦١؛ **النسائي**، الصلاة، ٢

(٢) **البخاري**، الدعوات، ٣؛ **الترمذي**، تفسير سورة (٤٧) ١؛ **ابن ماجه**، الأدب، ٥٧؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٨٢/٢، ٣٤١

ولكونه يقترب في كل خطوة من الله تعالى لذا، كان يستغفره من الحالة السابقة ومن الوضع السابق المرجوح من زاوية الموضع الجديد الذي وصل إليه، أي أنه في كل يوم يذكر اليوم السابق ويستغفر. إن تحمُّل وصبر مثل هذا الإنسان -الخالي من الذنوب- على المكوث بين الناس يكفي للاستدلال على مدى حلمه الواسع، مع أنه كان يواجه تصرفات خالية من الاحترام ومن الذوق فيقابلها بالحلم.

يروي كل من مسلم والبخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ الحادثة التالية: بينما النبي ﷺ يقسم ذات يوم قسماً أقبل شخص يدعى ذو الخُوَيْصِرَة رجلٌ من بني تميم (يحتمل أن يكون هذا الشخص من عرق مُغولي، ذلك لأن كتب السيرة تصف لنا هذا الشخص بأنه كان غائر العينين ناتئ الجبين مستشرف الوجنتين مدوَّر الوجه كالدرع المضروب)، فخاطب رسول الله ﷺ بوقاحة قائلاً له: "اعْدِلْ يا محمد!" لو خاطَبَنا أحدٌ بهذا الخطاب لهزنا الغضب حتى ولو كنا قد انحرفنا عن العدل فعلاً. ولكن هذا الكلام وُجِّه إلى نبي كانت وظيفته ومهمته هي إرساء العدالة في الدنيا. فقال عمر ﷺ الذي كان حاضراً هناك آنذاك: "دعني فأقتل هذا المنافق"، فلم يرض رسول الله ﷺ. وبعد أن هدّأ من خاطر عمر ﷺ ومَن حوله من الصحابة قال للرجل: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟.»[1] وفي رواية أخرى: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل.»[2] وفي رواية أخرى: «لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل.»[3] أي:

(١) **البخاري**، الأدب، ٩٥؛ المناقب، ٢٥؛ **مسلم**، الزكاة، ١٤٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٥٦/٣

(٢) **مسلم**، الزكاة، ١٤٨؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣/ ٣٥٤

(٣) **البخاري**، المناقب، ٢٥؛ **مسلم**، الزكاة، ١٤٢

بما أنني نبي فأنت مأمور باتباعي في كل شيء، فلو لم أكن رجل عدل –حاشا لله– إذن، فقد خبتَ وخسرتَ، ذلك لأنك لن تكون متبعاً آنذاك طريق الحق والعدل. و لم يأذن رسول الله ﷺ –كدأبه دائماً– في قيام أحد بقتله، ذلك لأنه كان رجل حلم من أخمص قدميه إلى مفرق شعره.

غير أنه لم يهمل إخبار أمته أن أمثال هذا الشخص سيتسببون في فتنة كبيرة في المستقبل. أجل، كان رسول الله ﷺ يعلم بما أخبره به ربه بأن أمثال هذا الشخص سيقودون فتنة كبيرة ضد هذه الأمة. وهذا ما حدث، إذ تحقق ما قاله رسول الله ﷺ في وقت مبكر، ففي معركة النهروان في عهد علي بن أبي طالب ﷺ كان معظم الخوارج المقاتلين له من نوع هذا الإنسان.

لم يقل الرسول ﷺ شيئاً حتى لهذا الرجل الوقح.. ولو هز رأسه، أو بقي صامتاً أمام اقتراح عمر ﷺ لطار رأس هذا الشخص صاحب الوجه الصفيق، فالرسول ﷺ كان يتصرف كما يأمره الله تعالى ولا يتعرض للجاهلين، فالقرآن الكريم يقول له: ﴿وَأَعرِض عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، أي دعهم وشأنهم، ولا تتعرض لهم، ولا يهمك أمرهم، فالجاهل يتصرف بجهل، وأنت لست بجاهل، إذن، فلن تقابلهم بنفس تصرفاتهم. أنت حليم ولين الجانب، وهذا هو سر فتحك لمغاليق القلوب والتربع بالمحبة على عروشها. وقد تحقق هذا فعلا، فبالحلم أسلم أناس لم يكن أحد يتصور إسلامهم، وفتحوا قلوبهم للنبي ﷺ.

يروي أنس بن مالك ﷺ أن امرأة يهودية بعد فتح خيبر أهدت النبي ﷺ شاة مسمومة، فتناول أحد الصحابة –بشر بن البراء– لقمة منها فمات، أي أن هذه اليهودية وضعت سمّاً قويّاً في الشاة، وهي تنوي تسميم النبي ﷺ؛ ولما كان

جانب المعجزة في هذه الحادثة ليس موضوعنا فإننا لا نبحثه هنا، وعندما تناول النبي ﷺ لقمة واحدة أخبرته الشاة أنها مسمومة، فأمر النبي ﷺ برفع الشاة، وإحضار المرأة التي اعترفت بجريمتها، وقالت أنها فعلت ذلك لقتل النبي ﷺ. وتقول الروايات بأنها عندما سُئلت: لم فعلت ذلك؟ قالت للنبي ﷺ: أردت أن أعلم إن كنت نبياً فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذباً أريح الناس منك. وأراد الصحابة قتلها فوراً إلا أن رسول الله ﷺ عفا عنها عن نفسه، ولم يقل شيئاً عن بِشْر بن البراء؛ هناك روايتان عن مصير هذه المرأة، رواية تقول: إن وارثي بشر قتلوها قصاصا، والرواية الثانية: إنها اهتدت وأسلمت، لذا سامحها أهل القتيل، وكان إسلامها سبب نجاتها.(١)

ما نريد الوقوف عليه هنا هو حلم رسول الله ﷺ، إذ عفى عن هذه المرأة اليهودية التي أرادت قتله، فما أجمل الوصول إلى مثل هذه القمة في الحلم. أجل، إن صفة الحلم التي بدأها إبراهيم عليه السلام بصيغتها الكاملة وصلت إلى الذروة عند سلطان الأنبياء.

يروي أبو داود والنسائي عن أبي هريرة: كنا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد، فإذا قام قمنا، فقام يوماً وقمنا معه حتى لّما بلغ وسط المسجد أدركه رجل فجبذ بردائه من ورائه -وكان رداؤه خشنا- فحمَّر رقبته، فقال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين، فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك.

ما هذه الوقاحة؟ وما سوء الأدب هذا؟ بدأت هذه الوقاحة بخطاب النبي ﷺ باسمه المجرد، واستمرت في سائر الكلمات. فلما سمعنا قول الأعرابي أقبلنا إليه

---

(١) **البخاري**، الهبة، ٢٨؛ **أبو داود**، الدية، ٦؛ «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٢٣٧/٤

سراعاً، فالتفتَ إلينا رسول الله ﷺ فقال: «عزمت على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذن له.» فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم: «يا فلان! احمِلْ له على بعير شعيراً وعلى بعير تمراً»، ثم قال رسول الله ﷺ «انصرفوا على بركة الله.»[1]

تأملوا كيف أن رجلاً يعامل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة بعد أن شهد مجلسه، واستمع إلى حديثه الذي يرقق القلوب، فأي قلب أصم كان يحمله، ذلك لأن مجلس النبي ﷺ لا يشبهه مجلس آخر.. لا مجلس ولي من الأولياء، ولا مجلس مرشد من المرشدين الكبار، وليس بإمكان كلماتنا القاصرة تصوير جو ذلك المجلس، ولكن الحقيقة التي يعلمها الكل هي أن النبي ﷺ كان يستطيع بقلبه الذي كان مرآة عاكسة للتجليات الإلهية، وبنفحة واحدة الارتفاع بمستمعيه إلى الذروة، كانت قابلية الانصباغ والتحول في مجلسه فوق كل تصوير، فمن حضر مجلسه مرة خرج منه وكأنه أصبح ملاكاً طاهراً صافي القلب.من أهم الأسرار الكامنة وراء عدم وصول أي ولي من الأولياء إلى رتبة الصحابة هي هذه القابلية للانصباغ وللتحول. يقول أحد أعلام هذا العصر:

"لقد خطر على قلبي ذات يوم سؤال وهو: لِمَ لا يبلغ أشخاص أمثال محيي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظتُ في أثناء قولي في سجودٍ في صلاة: "سبحان ربي الأعلى" أنّ شيئا من الحقائق الجليلة لمعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا أقول كلها بل أنكشف شيء منها. فقلت في قلبي ليتني أحظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف من معاني هذه الكلمة المباركة، فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم أدركت عقب

(١) **أبو داود**، الأدب، ١؛ **النسائي**، القسامة، ٢٤

الصلاة أن تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جواباً على سؤالي، وإرشاداً إلى استحالة إدراك أحد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة، ذلك أن التغيير الاجتماعي العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة قد ميّز الأضداد بعضها عن البعض الآخر، فالشرور بجميع توابعها وظلماتها أصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع أنوارها ونتائجها. ففي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تنبهت لدى أهل الخير نوازعه، فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة، ويعبر عنها تعبيرا نديّاً نضراً. فارتشفتْ مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار ارتشافا صافيا يقظا حسب أذواقها الرقيقة. وبناء على هذه الحكم، فإن الصحابة الكرام الذين كانوا يملكون مشاعر حساسة مرهفة، وحواس منتبهة ولطائف يقظة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لأنوار الإيمان والتسبيح والتحميد يشعرون بجميع معانيها، ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية."[1]

يجوز أن باب السماء قد انفتح لهذا الشخص الجليل، وأُلهِم بأن سجدته تلك كانت سجدة الصحابة. وخلاصة هذا الموضوع هي أن هذا الشخص الجليل القدر يقول بأنه مستعد لإعطاء كل عباداته مقابل ركعة من هذا النوع. هذا علماً بأنني عندما رأيت صلاة أحد تلاميذه المقلدين له استحييت من صلاتي. إذن، فهذه هي درجة الصحابة ودرجة الصحبة النبوية... درجة الذروة... فالصلاة التي لا نستطيع الوصول إلى مستواهم فيها حتى في ركعة واحدة مثل هذه الصلاة كانت صلاتهم الدائمية والاعتيادية.

---

(١) «**الكلمات**» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٥٧٥-٥٧٦

ذلك لأنهم كانوا يتلقون دروسهم من رسول الله ﷺ مباشرة. ثم إن جميع مسائل الدين كانت جديدة آنذاك وطرية؛ ففي يوم يشنف أذانهم صوت جديد هو صوت الأذان، فيعلوهم الوجد، وتثور عواطفهم. وفي يوم آخر هناك شيء آخر على المائدة الإلهية، وحكم آخر للدين يوضع أمامهم وكأنه الثمرة اليانعة لأول القطف، فيتسلل العشق الإلهي إلى قلوبهم، ويبقون في نشوته.

وعلى الرغم من كل شيء فقد بقيت هناك قلوب صماء لا تسمع ولا تعقل ولا تلين. وكان أصحاب هذه القلوب الميتة يتصرفون بخشونة وبصفاقة أمام رسول الله ﷺ. فكان النبي ﷺ يتسامح مع هؤلاء، ويتصرف معهم بالحلم وباللين، فلا يبقى هناك تصرف خشن لا يذوب في بحر حلمه. أجل، لقد كان يتصرف وهو يحسب حساب اليوم والغد وما بعد الغد ولو أظهر الشدة لانفضّ الناس من حوله كما يذكر القرآن. إذن، فحلمه كان من بين أسباب عدم انفضاض الناس من حوله، فلم يأت لاستعمال الشدة بين الناس، ولا لتشتيت المجتمع، بل جاء من أجل تأمين سعادة الدنيا والآخرة للناس أجمعين، فلم تكن الإنسانية لتحصل على حياتها الأبدية إلا بسلوك الطريق الذي أشار إليه. فقد كانت الأبدية ضمن منهاجه، وكان يخطط تصرفاته ضمن هذا المفهوم.

قام خالد بن الوليد بالتسبب في أضرار كبيرة للمسلمين في معركة أُحد، ولكن عندما حضر إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه رأى معاملة كريمة جدّاً من قبله بحيث شعر في اليوم الثاني أنه أصبح قطعة وجزءاً منه، إلى درجة أنه عندما لم يصحبوه إلى المعركة الأولى بعد إسلامه صعب عليه هذا الأمر جدّاً وبكى حتى الصباح، وهذا يوضح كيف أنه توحد مع الرسول ﷺ في وقت قصير جدّاً.

كان عمرو بن العاص وعكرمة ﷺ من الصحابة الذين آذوا النبي ﷺ قبل إسلامهم إيذاء كبيراً، ولكن حلم النبي ﷺ رقق قلوبهم وكسبهم للإسلام بحيث أصبحا من أشد الناس على الكفر وعلى الكافرين. ولولا أن الرسول ﷺ كان يخطط لكي يصلا إلى هذا المستوى الرفيع من الإيمان لما كان من المحتمل أن ينضم مثل هؤلاء إلى صفوف الصحابة.

الكل يعرف ابن هشام، فهو شقيق أبي جهل ووالد زوجة عكرمة. أسلم هذا الصحابي قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل، كان قبل إسلامه في مقدمة صف الكفر، وأصبح بعد إسلامه في مقدمة صفوف المسلمين. وأخيراً وفي معركة اليرموك استشهد بعد أن تقطعت أوصاله كلها تقريباً، وتوجه إلى خالقه. وفي لحظاته الأخيرة عندما قرَّب حُذيفة العدوي الماء من فمه سمع صوتاً خافتاً بقربه.. كان هذا شخصاً آخر يطلب الماء، فأبعد ابن هشام الماء من فيه طالباً إعطاءه لهذا الشخص... وتفصيل هذه الحادثة معلوم للجميع، فهذا الشخص عندما قرب الماء من فمه سمع صوتاً آخراً يطلب الماء، فيشير بإعطاء الماء إلي هذا، ولكن هذا الأخير يتوفى قبل وصول الماء إليه، وعندما يرجع للآخرين يراهم كلهم قد توفوا دون أن يشربوا قدحاً من الماء.(١)

الإيثار... الصفة النبوية المتميزة... الصفة التي انصبغ بها الصحابة الكرام مقتدين في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يعيش من أجل إعطاء الحياة الحقيقية للآخرين، ويقدم التضحيات التي لا تصدق. كان شخصاً مضحياً، وكان أصحابه أشخاصاً مضحين، والمثال السابق مثال حي على هذا.

---

(١) «**المستدرك**» للحاكم ٢٤٢/٣

يروي زيد بن سعنة اليهودي أنه باعه بيعاً إلى أجل، ثم جاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه. فقال له الرسول ﷺ: «لم يحل الأجل»، فقال له زيد: إنكم لَمطل يا بني عبد المطلب. فهمّ به أصحاب النبي ﷺ، فنهاهم عنه، و لم يزده ذلك إلا حلماً، فقال زيد: "كل شيء منه قد عرفتُه من علامات النبوة، وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فأردت أن أعرفها، لأن في التوراة آية تقول: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهالة إلا حلماً." ثم أسلم.(١)

إذن، فقد فتح رسول الله ﷺ قلب العالم اليهودي زيد بن سعنة بحلمه أيضاً، وأصبح سبباً في دخوله إلى الإسلام. أجل، كان رسول الله ﷺ حليماً ولياً إلى درجة لا يتحملها شخص آخر غيره. غير أن حلمه هذا كان متوازنا، فهو بينما كان يقابل كل إهانة لشخصه وكل تصرف طائش نحوه بالحلم نراه كالأسد الهصور عندما يمس الموضوع حقوق الآخرين، ولا ينفك حتى يأخذ الحق لصاحبه دون الْتفات إلى من هو الظالم ومن هو المظلوم فالأمر سيان عنده. أما إن كان الأمر متعلقاً بالتعدي على حرمة من حرمات الله فكان لا يعرف الراحة حتى يضع الحق في نصابه، وهذا دليل كونه رجل توازن. وقد يبدو هذا السلوك كقطبين متناقضين، إلا أن هذا التوازن كان من الخصائص النبوية للشخصية الممتازة لرسول الله ﷺ. ولكي يتوضح هذا الأمر نورد هنا بعض الأمثلة:

يروي مسلم والبخاري عن أبي مسعود الأنصاري قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوِّل بنا فلان. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من

---

(١) «**الإصابة**» لابن حجر ٥٦٦/١؛ «**المستدرك**» للحاكم ٦٠٤/٣؛ «**الخصائص الكبرى**» للسيوطي ٢٦/١؛ «**زاد المعاد**» لابن قيم الجوزية ٥٩/١

يومئذ فقال: «أيها الناس إنكم منفِّرون، فمن صلَّى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة.»[1] وكان يراعي هذا الأمر ويطبقه على نفسه، فأحياناً كان يطيل الصلاة، وأحياناً يقصرها حسب وضع الجماعة.

كان رسول الله ﷺ يحب معاذ بن جبل كثيرا، إلا أنه عندما اشتكوا من تطويله لصلاة العشاء عندما يؤم الجماعة غضب غضباً شديداً وقال لهذا الصحابي الذي يحبه كثيراً: «أفتّان أنت، أفتّان أنت، أفتّان أنت؟»[2]

كان أسامة بن زيد على رأس سرية، فأدرك رجلاً، فقال ذلك الرجلُ: صبأت. يريد أن يقول أنه قد أسلم، ولكن أسامة عدّ هذا نتيجة الخوف وليس عن إيمان حقيقي، فطعنه وقتله. وفي رواية أخرى أن هذا الشخص قال: لا إله إلا الله. وحسب رأي أسامة فإن كلام الرجل -حسب الرواية الأولى- لا يفيد كونه مسلما، أما حسب الرواية الثانية فقد اعتقد بأنه نطق بالشهادة تعوذاً من القتل. ولكن عندما سمع رسول الله ﷺ بالخبر أحضر أسامة واستنطقه، فاخبره أسامة بالخبر كله، فغضب رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» قال أسامة: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.[3] أي حتى تمنى أنه لو لم يسلم إلى ذلك اليوم لكي لا يسمع مثل هذا العتاب من رسول الله ﷺ مع أنه تربى في حجر الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يحبه مثل حبه للحسن وللحسين رضي الله عنهما.

---

(١) **البخاري**، العلم، ٢٨، الأذان، ٦١، الأدب، ٧٥؛ **مسلم**، الصلاة، ١٨٢

(٢) **البخاري**، الأذان، ٦٣، الأدب، ٧٤؛ **مسلم**، الصلاة، ١٧٩؛ **النسائي**، الإفتتاح، ٧١

(٣) **البخاري**، المغازي، ٥١، الديات، ٢؛ **مسلم**، الإيمان، ١٥٨؛ **أبو داود**، الجهاد، ٩٥

قال أبو ذر لبلال ﷺ ذات يوم: "يا ابن السوداء!" فشكاه بلال إلى الرسول ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال لأبي ذر: «يا أبا ذر! أعيَّرتَه بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية.»[1]

وتخاصم أبو بكر مع عمر ﷺ، فقال عمر لأبي بكر شيئاً آذاه، فعاتبه الرسول ﷺ و لم يدع حق أبي بكر عند عمر ﷺ مع أن النبي ﷺ كان يحب عمر حباً جماً.[2]

من هذه الأمثلة وعشرات أخرى يتبين لنا أن حلم الرسول ﷺ كان ذا أبعاد متوازنة. فكان يمثل في هذا الموضوع -وفي المواضيع الأخرى كذلك- الصراط المستقيم، إذ نراه يصفح عن كل الإساءات الموجهة إليه ويقابلها بالحلم، ولكنه لا يرضى أبداً عن أي اعتداء على حقوق الآخرين مهما كان هذا الاعتداء قليلا، ومهما كان الشخص المعتدي. فإنه كان يواجهه لكي يضع الحق في نصابه.

هـ. كرمه وتواضعه

قبل أن ندخل إلى الموضوع نحب أن نقوم بتذكير بسيط، فقد أشرنا إلى "الفطنة الكبيرة"، ولنكرر هنا أن الفطنة تعني المنطق النبوي الذي له صفة الوحي والذي يعجز أمامه العقل ويفشل وينعقد تجاهه اللسان. قد يقف المنطق بأجمعه ويتعثر في مكان ما، وقد تصل العلوم إلى نقطة معينة، فلا تستطيع تجاوزها إلا أن الفطنة النبوية والمنطق النبوي -حسب التعريف السابق- تحلق فوق الذرى التي تبدو مستحيلة البلوغ، وهذا الأمر دليل آخر على نبوته.

---

(١) **البخاري**، الإيمان، ٢٢؛ **مسلم**، الأيمان، ٣٨-٤٠

(٢) **البخاري**، تفسير سورة (٧) ٣

ونحن نحاول أن نستخرج دليل نبوته في كل صفة من صفاته، فعندما نرى صبره لا يسعنا سوى التصديق بأنه رسول الله. فعلى وجه الصبر يمكن مطالعة عبارة: محمد رسول الله. وأهل الإنصاف بأجمعهم يستطيعون قراءة هذه العبارة.. فالذي تحدَّى المهالك جميعها، وتصدَّى للمصائب بهذا الشكل لابد أن يكون رسول الله. وعندما ندقق سيرته من ناحية صفة رحمته تظهر أمامنا الحقيقة نفسها كالشمس في رابعة النهار. ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكن يعرف حدوداً للرحمة، إذ كان محملاً بالرحمة أكثر من حمولة الغيوم بالمطر. هو باختصار رحمة للعالمين. ولم تقتصر رحمته على الإنسانية وحدها، بل ربما استفاد الكون كله من رحمته هذه، ولا يزال يستفيد وسيستفيد حتى قيام الساعة، وعندما ألقينا نظرة على رحمته رأينا فيها رسالته، فأحببنا أن نعرضها أمام الأنظار.

حاولنا أخيراً شرح حلمه، وذلك كبُعد من أبعاد رحمته، غير أن كل صفة من هذه الصفات تمثل بُعداً من أبعاد فطنته. ويمكن فهم فطنته إن تم تناول كل بعد من هذه الأبعاد على حدة.

١- مقطع من الكرم

بُعد من أبعاد رحمة الرسول ﷺ -وبالتالي فطنته- هو كرمه. لنوضح هذا الأمر قليلاً: الكرم هو خصلة حب الخير والعطاء، وكان الكرم من الخصال المرغوبة لدى العرب، وإذا دققت الشعر الجاهلي رأيت العربي يفخر بما ينحره للضيوف من شاة أو بعير، وكانت القبائل والعشائر تتسابق في هذا. ومن المؤكد أن هذا الكرم كان يتم باسم الفخر وباسم الأنانية.

في هذا الجو الذي كان الكرم فيه مرغوباً ووسيلة للفخر ظهر بينهم أكـــرم الكرماء. وعندما رأوا كرمه انعقدت ألسنتهم من الحيرة فكرم هذا الكريم كان لوجه الله فقط، ولو قام بتقديم الدنيا كلها هدية لأحدهم لما ذكر ذلك، ولمـــا افتخر بكلمة واحدة، بل إنه لم يكن يرضى من الشعراء ذكر كرمه في أبياتهم، وكان يحول كلماتهم في الفخر إلى الله الذي هو أكرم الأكرمين.

كان مرآة نقية انعكس عليها اسم "الكريم" لله تعالى. كان في ذروة تمثيـــل خلافة الله تعالى في هذا الموضوع كما في المواضيع الأخرى، ولم يكن هنـــاك على وجه الأرض شخص أكرم منه. كان محمد ﷺ طريقاً للكرم، وكان الكرم طريقاً للجنة. أما البخل الذي عبر عنه القرآن الكريم بـــ"الشح" فكان طريقـــاً إلى جهنم. والذين رأوه –حتى ولو عن بعد– عرفوه من صفاته أنه هو.. فهـــو المرشد الأوحد للإنسانية إلى طريق الجنة، وهو صاحب الشفاعة العظمى للناس أمام أبواب الجنة، لذا يجب أن يحسب كل إنسان حسابه. ونحن نصفه بـــصفة من صفات الله تعالى فنقول عنه إنه أكرم الأكرمين، ذلك لأنه بز بكرمه كـــل المقاييس البشرية، وأصبح في الكرم خليفة ربه.

لقد استطاع بكرمه أن يدخل إلى قلوب استعصى الدخول إليها بـــصفاته الأخرى، فكأن رحمته تبخرت وصعدت إلى السماء كغيوم، ثم أمطرت علـــى الكون كرما، فرقت القلوب القاسية، وهيأت الجو الملائم لكي تشق النباتـــات الصغيرة طريقها من التربة، أي فتح الأرواح بحلمه، ثم تربع فيها بكرمه، فإن لم تعرف هذين الجانبين معاً لم تدركه ولم تعرفه حق المعرفة.

لو أراد لكان أغنى إنسان في الدنيا، فمنذ بداية دعوته عرضت قريش عليه هذا

مقابل التخلي عن دعوته.[1] وبعد ذلك كان كل ما يعطيه المسلمون في سبيل الله يمر من بين يديه إضافة إلي الهدايا التي كانت تصله من الحكام ومن الملوك، ولكنه لم يلتفت إلى هذا،و لم يدر بخلده هذا الأمر. لقد عد نفسه على الدوام مسافراً في هذه الدنيا، وعاش ونصب عينيه أنه سيترك هذه الحياة، وأن الدنيا ليست سوى شجرة يستظل تحتها المسافر مدة قصيرة في أثناء سفره الطويل.

إذن، فعليه أن يشغل قلبه في هذا السفر الطويل بالأمور المهمة. ثم كان عليه أن يعلِّم الإنسانية الطريق الصحيح وبعد انقضاء الوقت المقدر له تحت هذه الشجرة عليه أن يستمر في طريق سفره.[2] أما الهدف فهدف علوي، فقد كان الوصول إلى الله تعالى غايته الأولى. ثم القيام بوظيفة إيصال الناس إلى الهدف نفسه كان قلبه ممتلئاً حماسة متقدة لتحقيق هذه الغاية. مثل هذا الشخص ماذا يعمل بالدنيا، وما أهمية الدنيا لديه؟! لا أهمية لها عنده طبعا، وهي لا تستحق أن يربط قلبه بها.

وبالنسبة لحياته الخاصة فقد اختار حياة الفقر، وهذا لا يعني أنه يريد أن يصبح الجميع فقراء، ولكنه لم يكن يرضى أن تغلب المعدة الناس جميعاً. و لم يلبث المسلمون أن أصبحوا بفضله من أغنى الأمم في وقت قصير حتى لم يعودوا يجدون بينهم من يقبل الزكاة أو الصدقة؛ وذلك نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة عندهم. ولكن كان بينهم زهاد لم يكونوا يقبلون أية هدية مهما كانت جذابة إن كانوا يملكون قوت يومهم. كان هذا نوعاً من الإيثار وعلو الروح، ووَجْد

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٢٨٥/١

(٢) **البخاري**، الرقاق، ٣؛ **الترمذي**، الزهد، ٤٤؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٣٩١/١

هبة الحياة للآخرين، وترك لذائذ العيش. والذي لم يجرب هذه الأحاسيس، و لم يمتلئ بها لا يمكن أن يفهم هذا. قُدّم مرة قدح ماء بارد إلى أبي بكر على مائدة الإفطار، ولكنه ما أن رفعه إلى شفتيه حتى بكى، فسئل عن سبب بكائه، فقال: لقد أعطي رسول الله ﷺ مرة قدح ماء بارد، فشربه ثم بكى وقال: "هذا من النعيم الذي سنُسْأَل عنه: ﴿ثُمَّ لَتُسئَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)، فذكرت ذلك، وبكيت."[1]

وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجراً، وكان بالسُنح، فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء ممشق. فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح. فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. فكان أبو بكر يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كُفيها فرُعيت له. وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لك، وإني لأرجو ألا يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه. فكان يحلب لهم. فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها، ونظر في أمره، فقال: لا والله، ما يصلح أمور الناس والتجارة، وما يصلحهم إلا التفرغُ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيال مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم، ويحج

(١) «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم ٣٠/١

ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة قال: رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا، وأرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمن بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك لعمر، ولقوحا وعبداً وصيقلا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده.[1]

لقد تعلم أبو بكر ﷺ عيش الزهد هذا من الرسول ﷺ، ذلك لأنه علم صحابته بالمثل الذي ضربه لهم فعلياً في حياته إمكانية العيش بمثل هذا الزهد.

لقد كان لرسول ﷺ خمس الغنائم، وذلك حسب أمر الله ﷻ، وكان يستطيع التصرف بها كيفما شاء. يقول عمر بن الخطاب ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقَرَظ في ناحية في الغرفة، وإذا إهاب معلَّق. فابتدرتْ عيناي، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت له: يا نبي الله ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر بجنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك. فقال الرسول ﷺ: «يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟.»[2]

عندما قال الرسول ﷺ هذا القول لم يكن يقوله كشخص فقير مضطر لمثل هذه المعيشة لا يملك خياراً آخر، فكما قلنا أعلاه فقد كان في إمكانه أن يكون أغنى رجل

---

(١) «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري ٤/٢٥٠-٢٥٢

(٢) **البخاري**، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ **مسلم**، الطلاق، ٣١

في العالم. ولكي تكون لدى القارئ فكرة موجزة عن الموضوع فإنا ندرج هنا ما غنمه المسلمون في معركة واحدة فقط هي معركة "حُنين": (٤٠٠٠٠) غنم، (٢٤٠٠٠) بعير، (٤٠٠٠) أوقية فضة (الأوقية هنا تعادل ٤ كغم تقريبا) و٦٠٠٠ أسير.[١] علماً بأن حصة الرسول ﷺ من هذه الغنائم هي الخمس.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار الغنائم في المعارك الأخرى وهدايا الملوك له علمنا أنه لم يكن هناك أي مانع أمام رسول الله ﷺ لكي يعيش حياة مرفهة جدّاً. ولكنه كان يعيش حياة الفقراء، وكان يوزع كل ما يأتيه على الناس، ذلك لأن الكرم تجسد فيه، وما كان بالإمكان أن يكون هناك شخص يمثل هذا الكرم إلا رسول الله. كان رسول الله ﷺ يمثل أنموذج الشخص المتوازن في مظهره الخارجي وعالمه الداخلي، فكما كان مظهره الخارجي مهيباً وجميلاً يسحر القلوب والألباب كان عالمه الداخلي الغني يسحر قلوب الناس.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس"،[٢] أي أحسن الناس صورة وسيرة. ويصفه جابر بن سمرة رضي الله عنه فيقول: "رأيت النبي ﷺ ليلة أضحيان -أي ليلة كان البدر فيها تاماً- وعليه حلة حمراء، فكنت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو أزين في عيني من القمر."[٣] ويقول أحد الشعراء على لسان أمنا عائشة رضي الله عنها بأن نساء مصر عندما رأين يوسف عليه السلام قطّعن أيديهن، ولو رأين سيدي لضربن صدورهن بالسكاكين التي في أيديهن.

---

(١) «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١٥٢/١

(٢) **مسلم**، الفضائل، ٤٨ (عن أنس)؛ **البخاري**، المناقب، ٢٣ (عن البراء).

(٣) «**كنز العمال**» للهندي ١٦٨/٦

يقول الشاعر نديم: "مُلك العجم كله فداء لحجر من أحجار إسطنبول"، ولو فهم هذا الشاعر رسول الله ﷺ حق الفهم لقال: "الدنيا كلها فداء لشعرة من شعر الرسول ﷺ".. كان أحسن الناس وأجمل الناس. ويستمر أنس بن مالك ﷺ في وصفه فيقول: "وكان أجود الناس."[1] يقول ابن عباس ﷺ عن جود النبي ﷺ: "كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان"، ثم يصف جوده في رمضان، فيقول: "كان أجود بالخير من الريح المرسلة"،[2] أي إنه كان يجود بآخر ما بقي في يده. وهذه حالة إرادية وروحية، فلم يكن يعيش لنفسه، بل عاش لغيره ولسعادة غيره طوال حياته، ولم يجد فرصة للتفكير في نفسه إذ كان أسعد ما يكون عندما يرى غيره سعيداً، وكان أهل بيته وأقرباؤه يأتون في الصف الأخير من إيثاره، فإن كانت هناك غنيمة يجب توزيعها بدأ ببيوت شهداء بدر وأحد، وكان يعتذر عن إعطاء شيء لأهل بيته قبل إعطاء الناس كلهم.[3]

ولقد كان أشجع الناس، لا يهاب أحداً. أجل، فإلى جانب كل هذه الخصال الرفيعة فقد كان أشجع الناس، وأكثرهم جرأة. فلم يخش أحداً غير الله، على العكس من ذلك، ففي الأوقات التي كان الناس يخافون فيها كان هو كالأسد الضرغام يتقدم نحو الخطر، ونحو أعدائه المتوحشين وحده.[4] وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

القلوب التي لم يفتحها حلم الرسول ﷺ والجوانب الأخرى الرفيعة من

---

(١) **البخاري**، الجهاد، ٢٤؛ **مسلم**، الفضائل، ٤٨

(٢) **البخاري**، الصوم، ٧؛ **مسلم**، الفضائل، ٥٠

(٣) **البخاري**، الدعوات، ١١؛ **أبو داود**، الأدب، ١٠٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ١٣٦/١

(٤) **البخاري**، الجهاد، ٥٢؛ **مسلم**، الجهاد، ٧٨، الفضائل، ٤٨

أخلاقه فتحها كرمه، وصفوان بن أمية مثال على هذا: ففي رواية أوردها مسلم في صحيحه عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بِحُنين، فنصر الله دينه والمسلمين. وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأَبغَضُ الناس إليّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحَبّ الناس إليّ."[1]

كان يعطي عندما يستعطى إن كان معه، وإلا وَعَدَ. وأحياناً كان يعطي رداءه الوحيد لمن يسأله؛ جاءه مرة بدوي، وطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم جاءه ثانية فأعطاه أيضا، ثم جاءه ثالثة فوعده إذ لم يكن معه شيء يعطيه، وقد حزن عمر بن الخطاب ﷺ لقيام هذا البدوي بمثل هذا الإلحاح المتكرر على رسول الله ﷺ فقال له: "سُئلتَ فأَعطيتَ ثم سُئلت فأَعطيت ثم سُئلت فوعدتَ"، ولكن الرسول ﷺ لم يهش لهذا القول، فقام عبد الله بن حُذافة السهمي، وقال: "أنفق يا رسول الله! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً"، فسكت رسول الله ﷺ هنيهه، ثم قال: «بذلك أُمِرْتُ.»[2] وما أحسن ما قاله الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

كان يقول "نعم" لكل سائليه، ولكن بشرط أن يكون في دائرة الشريعة.

---

(١) **مسلم**، الفضائل، ٥٩؛ «**الإصابة**» لابن حجر ١٨٧/٢؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٤٦٥/٦؛ «**كنز العمال**» للهندي ٥٠٥/١٠؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٣٧/٤

(٢) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٦٣/٦

أجل، لم يكن له نظير في الجود وفي الكرم، كان كريماً إلى درجة أن هذا الكرم لايمكن تعليله أو تفسيره إلا بالنبوة. ثم إذا كان الكرم طريقاً للقرب من الله تعالى فكيف لا يكون الرسول ﷺ كريما؟ علماً بأنه كان أقرب إلى الله حتى من جبريل عليه السلام. أليس هو القائل: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار.»[1]

إن بعض الكتب ترسم شجرة طوبى كشجرة جذورها في الهواء وأغصانها ممتدة إلى الأسفل، هل شجرة طوبى هكذا؟ لا أدري، ولكني موقن أن رسول الله ﷺ شجرة وارفة ممتدة من الجنة تظللنا. فما أسعد من استظل بهذه الشجرة واحتمى بها!

يقول الرسول ﷺ في هذا الخصوص: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخُلق.» الإسلام مع السخاء وحسن الأخلاق، فإن لم يكن عندك ما يؤهلك لقطع المراتب نحو الكمال، فإنك تستطيع الوصول إلى هذه المراتب بحسن الخلق، والسخاء والكرم ضمن نظام هذا الخلق. يقول الرسول ﷺ: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخلق، ألا إن السخاء شجرة من الجنة، وأغصانُها في الدنيا، فمن كان منكم سخياً لا يزال متعلقاً بغصن منها حتى يورده الله الجنة. ألا إن اللؤم شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن كان منكم لئيماً لا يزال متعلقاً بغصن من أغصانها حتى يورده الله النار.»[2]

---

(١) **الترمذي**، البر، ٤٠

(٢) «**كنز العمال**» للهندي ٥٧١/٦

وإذا كان البخل نوعاً من عدم التوازن ونوعاً من التفريط، فإن التبذير نوع من الإفراط، فكلاهما نوع من عدم التوازن. والفطنة النبوية تستعمل الكرم والسخاء من أجل إعلاء دين الله. فكما تسلل الرسول ﷺ إلى القلوب بخلقه اللين وبرحمته، فإنه استعمل ما أفاض الله عليه من النعم لفتح القلوب المغلقة والقاسية.

كانت أمنا خديجة رضي الله عنها أول مسلمة، ومعنى كلمة خديجة "المولودة مبكرا"، لقد ولدت قبل رسول الله ﷺ بخمسة عشر عاماً، واهتدت إلى الإسلام قبل الجميع. ومن ثم فقد كان هناك توافق بين الاسم والمسمى، وهذه المرأة التي كانت من أغنى الأغنياء في مكة أنفقت ثروتها كلها في سبيل الله وفي سبيل رسوله حتى أنها عندما توفيت لم يكن عندها ثمن الكفن. ولعل رسول الله ﷺ استدان ثمن كفنها، لقد كان هذا أنسب شكل وفاة لها.. فقد أنفقت آخر قرش لها في سبيل الله..[1] كانت أنموذجاً آخر لمن سلك الصراط المستقيم. وقد استعمل الرسول ﷺ كرمه هذا بفطنة كبيرة بحيث لم يذهب كرمه هذا هباء منثوراً، بل استفاد منه في زيادة قوة الإسلام.

٢- تواضعه

كان تواضعه بعداً متلألئاً آخر من أبعاد فطنته، فكلما زادت شهرته، وأصبح معروفاً ومقبولاً من قبل الناس زاد تواضعه، فكأن تواضعه ولد معه، واستمر معه حتى وفاته، فهو صاحب القول المعروف: «من تواضع لله، رفعه الله»،[2] وهو صاحب التطبيق العملي لقوله هذا. لقد عد نفسه على الدوام فرداً من الأفراد، و لم

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ١٥٨/٣، ١٥٩؛ «**أعلام النساء**» لعمر رضا الكحالة ٣٢٦/١-٣٣١

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ٧٦/٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٢٥/١٠؛ «**كنز العمال**» للهندي ١١٣/٣

يميز نفسه عن غيره. وكان يمثل في نفسه تمثيلاً جيداً حكمة : "كن عند الناس فرداً من الناس."

أجل، إذ لا ينبغي على الإنسان أن يغترّ بمقامه أو بمنصبه فينسى نفسه؛ فكل الناس بشر، والمناصب لا تغير الناس، ولا تجعل منهم مخلوقات أخرى، فعلى الإنسان في كل حال من الأحوال ألا ينسى أنه فرد من الأفراد. إن كانت الديمقراطية أفضل نظام حسبما يراه البعض، فإن الإسلام وصل إليها قبل عدة عصور، ولكننا ضد إطلاق تعبير النظام الديمقراطي على النظام الإسلامي.

وإليكم مقاطع اجتماعية من النظام الإسلامي: علي بن أبي طالب ﷺ أمام القاضي شريح ليحاكم مع خصمه الذمي الذي شكاه، فأشار القاضي شريح لعلي ﷺ بالجلوس، فقطب علي بن أبي طالب ﷺ حاجبيه و لم يقبل ذلك، لأنه لم يرض أن يجلس وخصمه واقف، فهذا ليس من العدالة في رأيه. وتصوروا أن عليّاً ﷺ كان آنذاك خليفة المسلمين، أي رئيس الدولة.[1]

كان الرسول ﷺ رجل فطرة، ممتزجاً مع الحياة، فكثيراً ما كان الداخل إلى مجلسه لا يعرف النبي ﷺ من بين أصحابه إلا إذا استنتج ذلك من سلوك وتصرفات الصحابة، أو عندما كان النبي ﷺ يتحدث إليهم. وفي أثناء الهجرة عندما دخل النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ المدينة هرع العديد ممن لم يروا النبي و لم يعرفوه، هرعوا ليقبلوا يدي أبي بكر ﷺ إذ ظنوا أنه هو النبي، ولكن ما إن أخذ أبو بكر ﷺ مروحة بيده ليروح عن رسول الله ﷺ حتى عرفوا أيهما

(١) «**البداية والنهاية**» لابن كثير ٨/٥

النبي. ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن يتصرف أي تصرف يميزه عن أبي بكر.[1]

وكيفية دخوله ﷺ إلى مكة عند فتحها مشهورة ويعلمها الجميع، فقد كان منحنياً على مركبه حتى يكاد السرج أن يلمس جبهته. بهذا التواضع دخل هذا النبي الكريم تلك البلدة الكريمة.[2] وفي حديث ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف الرسول ﷺ: "كان يكون في مهنة أهله -تعني في خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"، وفي رواية أخرى: "كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه."[3]

عندما كان يقوم بهذا كان الإسلام واسمه يترددان في أقطار عديدة. لقد نظم وقته جيداً بحيث أنه كان يجد وقتاً لهذه الأعمال من بين الأعمال والمسؤوليات والمهام الكبيرة التي كان مكلفاً بها.. لقد كان ذروة في كل خصلة جيدة.

أ) كان بين الناس

التواضع هو علامة العظمة في العظماء، والتكبر هو علامة الصغار فيهم. ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الناس، كان أكثرهم تواضعاً.

عند بناء مسجد المدينة بينما كان الجميع يكُدُّ ويعمل، كان هو أيضا يحمل معهم اللبن كفرد من أفرادهم، فعن أبي هريرة أنهم كانوا يحملون اللَّبِنَ لبناء المسجد ورسول الله ﷺ معهم، قال: فاستقبلتُ رسول الله ﷺ وهو عارِضٌ لبنةً على بطنه، فظننت أنها قد شُقَّتْ عليه. قلت: ناوِلْنِيها يا رسول الله. قال: «خذ

---

(١) «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٣٧/٢

(٢) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ١٦٩/٦؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ٤/ ٤٧، ٤٨

(٣) «**الشمائل**» للترمذي ٢٨٣؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٢٥٦/٦

غيرها يا أبا هريرة، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة.»[1] وفي حفر الخندق كان كل واحد من الصحابة يربط حجراً على بطنه، أما هو فحجرين.[2] وعندما حضر رجل إلى مجلسه وقابله ارتجف من مهابته، فقال له الرسول ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَديد.»[3] لقد كان أكثر الناس تواضعاً.

الذين يجلسون في المجالس، ويضعون رِجلاً على أخرى دليلا على التكبر والغرور.. هؤلاء أعدهم مرضى من الناحية النفسية، أما رسول الله ﷺ فكان يجلس مثل سائر الناس، ويتصرف مثلهم، ولكن ضمن أدب جم. كان جل نظره إلى الأرض، وكانت عظمته تبدو عندما يضع جبهته للسجود على الأرض، يقول الرسول ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[4]

التواضع وعدم التكبر جناحان يطيران بالإنسان إلى الأعالي. وبهذا التواضع الجم استطاع الرسول ﷺ أن يكون هادياً أبديّاً للإنسانية. فقد استطاع الناس أن يقابلوه، ويتكلموا معه بكل اطمئنان وراحة، ويبثوا إليه مشاكلهم، ويعرضوا عليه أسئلتهم، لأن سلوكه المتواضع كان ييسر لهم هذا.

يورد القاضي عياض أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته، فقالت: إن لي

---

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٣٨١/٢؛ «**السيرة النبوية**» لابن هشام ١٤١/٢

(٢) **الترمذي**، الزهد، ٣٩

(٣) «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٢٠/٩؛ **ابن ماجه**، الأطعمة، ٣٠

(٤) «**كنز العمال**» للهندي ١١٣/٣؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٣٢٥/١٠؛ «**المسند**» للإمام أحمد ٧٦/٣

إليك حاجة. قال ﷺ: «اجلسي يا أم فلان، في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضى حاجتك.» قال: فجلست فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها.[1]

و لم يكن قيامه بمثل هذه الأعمال يعد ذلاً ولا صغاراً، فقد كان أشجع الناس، ووقف أمام الكفر بكل شجاعة وجرأة. يقول عنه علي ابن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً."[2] بل إن وجوده وحضوره كان ينشر الأمن والطمأنينة فيما حول أي أن تصرفاته البعيدة عن الغرور كانت تنبع من تواضعه.

بـ) تصرفاته الفطرية

كما أن التواضع ليس ذلاً فإن الغرور والكبرياء ليس وقاراً. لقد كان ﷺ متوازناً في التواضع كما في كل خلقه وتصرفاته حتى أن صفته هذه تسوقنا إلى شهادة أن محمداً رسول الله.

عندما يتصرف القاضي في المحكمة بجدية فهذا وقار، ولكن إن تصرف بالأسلوب نفسه في البيت أمام أطفاله وأهله يكون هذا كبرياء، لأن على الإنسان أن يتصرف في البيت كأحد أفراد البيت. فهذا دستور إسلامي، وكان رسول الله ﷺ أفضل من طبقه أما من جاء بعده فقد امتثلوا له وقلدوه. كان الجميع يرونه أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، ولكنه كان يقول:

---

(١) «**الشفاء**» للقاضي عياض ١٣١/١

(٢) «**المسند**» للإمام أحمد ٨٦/١

«لن ينجي أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة.»[1] أجل، لقد كان رجل فطرة إلى الدرجة التي استطاع فيها أن يقول مثل هذا القول، إذ يرى نفسه إنساناً بين الناس، وفرداً بين الأفراد، ثم يضبط وينظم سلوكه وتصرفاته على هذا الأساس.

جاءه عمر بن الخطاب ﷺ يوماً يسأله الإذن للعمرة، إذ كانوا يسألونه الإذن لأداء العمرة، لأنهم كانوا أفراداً ملتزمين بالنظام، يهرعون إلى رسول الله ﷺ في كل أمر من أمورهم، وفي كل مشكلة تعرض لهم. فمثلاً إن كان لأحدهم بنت في سن الزواج جاء إليه قائلاً: لي بنت بالغة أريد لها كفؤاً، وإن كان لأحدهم بستان يريد أن يجعله وقفاً لله تعالى عرض الأمر أولاً على الرسول ﷺ، ومن أراد الاعتكاف أو السفر راجعه واستأذن منه، فلا يرد طلب أحد. عندما جاءه عمر ﷺ يستأذنه لأداء العمرة قال له رسول الله كلاماً ظل عمر ﷺ يذكره حتى آخر حياته، إذ قال له ﷺ: «أي أُخَيّ أشركنا في دعائك ولا تَنْسَنا»، فسُرّ عمر ﷺ سروراً كبي، وقال ما معناه ''لو وهبت لي الدنيا ما سررت مثل سروري لكلامه هذا.''[2]

ج) تواضعه وعبوديته

فتح تواضعه القلوب مرة أخرى. كان ﷺ يأخذ بيد أمته، ويرقى بها إلى مدارج الرقي والسمو. كان عُمَرُ قد ارتقى بطفرة واحدة إلى مدارج عليا، ولكن رسول الله ﷺ كان يرتقي بصحابته أكثر وأكثر، فاستطاع أن يحول أمة بدوية إلى أمة

(١) **البخاري**، الرقاق، ١٨، المرضى، ١٩؛ **مسلم**، صفة القيامة، ٧١-٧٦

(٢) **الترمذي**، الدعوات، ١٠٩؛ **أبو داود**، الوتر، ٢٣؛ **ابن ماجه**، المناسك، ٥

معلمة ومرشدة. وبينما كان يرقى بأمته إلى الذرى كان ارتقاؤه هو أكبر وأسمى، وكلما سما إلى الأعالى زاد تواضعه بالنسبة نفسها، أما نظرته إلى نفسه فقد امتلأت بإحساس وبعاطفة العبودية لله تعالى عبودية خالصة.

يروي أحمد بن حنبل عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، قال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يومِ خُلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد ﷺ. ثم ألا يأمره القرآن الكريم بالتواضع؟ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥). فكان جواب النبي ﷺ للملَك: «بل عبداً رسولاً.»[1] وعندما اختار العبودية جعل الله تعالى عبوديته هذه مدار فخر له، لذا تحدث القرآن عنه في كثير من الأحيان من زاوية صفة عبوديته هذه، وعندما يتشهد المسلمون يشهدون أنه عبد الله ورسوله، أي هو عبد الله ثم هو رسوله، فعبوديته تأتي قبل رسالته.

هناك أناس يكونون عبيداً لغيرهم، ويضعون طوق العبودية في أعناقهم، أما محمد ﷺ فقد كان عبداً لله أولاً وآخراً، فلم يكن في أي عهد من عهود حياته عبداً لأحد، و لم ينحن أمام أحد، فعبوديته لله وحده صفة أصيلة فيه. وكإشارة إلى مظاهر عبوديته ترتفع من فوق المآذن كل يوم خمس مرات أصوات الشهادة تعلن للعالم كله بأنه عبد لله ورسول له. هو عبد لله، فقد وصفه القرآن الكريم بهذا الوصف اذ يقول: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾

(١) «**المسند**» للإمام أحمد ٢/٢٣١؛ «**مجمع الزوائد**» للهيثمي ٩/١٨-١٩

(الجن: ١٩). وسواء أكان هؤلاء الذين كادوا يكونون عليه لبداً من الجن أم من مشركي قريش فإن المهم عندنا هو أنه جرى ذكره في القرآن بصفة "عبد الله."

وكذلك تطلق عليه صفة العبد عندما يتم شرح كيف أن القرآن كلام الله، وأن من كان عنده شك في هذا فليأت بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤).

كذلك يصفه القرآن بصفة العبد في مناسبة صعد فيها النبي ﷺ إلى ذروة الذرى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

كانت حادثة المقاطعة ثم وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبي طالب قد جعلته وحيداً بين الناس لا حامي له، أي عندما انقطعت الأسباب، وزالت كل المساند الواحد منها تلو الآخر تجلت الرحمة الإلهية في برج الأحدية من قبل مسبب الأسباب. يقول مفكر العصر سعيد النورسي رحمه الله بأن نور التوحيد ظهر في برج الأحدية حيث دُعي رسول الله ﷺ كضيف كريم إلى السموات السبع ليرى ربه وخالقه ومالكه.

ليست غايتنا هنا شرح الإسراء والمعراج، لذا لن ندخل في هذا الموضوع، ولكننا نريد جلب أنظاركم إلى ناحية مهمة في هذا الموضوع وهو أن الله تعالى عندما خاطبه في صدد هذه المعجزة المهمة لم يخاطبه بأي اسم من أسمائه الواردة في القرآن أو الإنجيل أو التوراة، أي لم يخاطبه بـ محمد أو أحمد أو أحيد بل

خاطبه بكلمة "عبده". فكأنه عندما قال: "إنني عبد الله" قال له الله تعالى: "ما دمت أصبحت عبداً فإنني أجعل العبودية لي أرفع وأسنى درجة، لـــذا فأينمـــا أحببت أن أوضح قيمتك ذكرت عبوديتك، وأجعل كل مسلم يشهد أنك عبد الله قبل أن تكون رسولاً له، وسترتج السموات والأرض بهذه الشهادة."

و. الخلاصة

الكتب التي ذكرت شمائل رسول الله ﷺ ذكرت كل شمائلـــه بـــدءاً مـــن أوصاف بدنه ووصولاً إلى أخلاقه وإلى عالمه الروحي العميق. كـــان إنـــساناً كاملاً في كل شيء، يقول عليّ بن أبي طالب ﷺ وهو يصفه: "كان رســـول الله أجود الناس كَفّاً، وكان أشرح الناس صدراً، وكان أصدق الناس لهجـــة، وكان ألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة. مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه."[1]

ليس في الإمكان ذكر أحد أحبه الناس مثله... لا من قبله ولا من بعده... ولا عجب في هذا، فقد كان هو حبيب رب العالمين.

(١) «**الشمائل**» للترمذي/ ٢٧٦-٢٧٨؛ **الترمذي**، المناقب، ٨؛ «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد ١/١٢١

الفصل الخامس: العصمة

والعصمة أيضاً من صفات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهي حفظ الله تعالى لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها. وسنتناول هذا الموضوع إن شاء الله في الجزء السادس من هذه السلسلة، وهو تحت عنوان "العصمة النبوية". والله وليّ التوفيق.

تم الجزء الثالث من سلسلة النور الخالد

ويليه الجزء الرابع وهو

"فن التربية وحل المعضلات عند مفخرة الانسانية ﷺ "

فهرس

الفصل الرابع: الفطنة ٥
فطنة نبينا ﷺ ٧
أ- أمثلة من فطنته ﷺ ٩
١) تعمير الكعبة ٩
٢) إسلام حُصين ١١
٣) التحدث حسب مستوى البدوي ١٣
٤) خطابه للأنصار في حُنين ١٥
ب- نبينا ﷺ وجوامع الكلم ٢١
(١) تحليل باقة من الأحاديث ٣١
(٢) وباقة من أدعيته ١١٨
ج. الرحمة النبوية بعد من أبعاد فطنته ﷺ ١٢٣
١- الإفراط والتفريط في الرحمة ١٢٤
٢- خدعة "الإنسانية (Humanizm)" ١٢٥
٣- كان ذروة في كل شيء ١٢٧
٤- الرحمة العالمية ١٣١

٥- الأطفال ١٣٧
٦- الشفقة على الحيوانات أيضاً ١٣٩
د. الحلم ١٤٢
هـ. كرمه وتواضعه ١٥٩
١- مقطع من الكرم ١٦٠
٢- تواضعه ١٦٩
و. الخلاصة ١٧٧
الفصل الخامس: العصمة ١٧٨

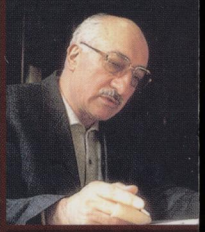

عبقرية الفطنة

الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، ويمكن أن نسميها بمنطق النبوة. هذا المنطق هو النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحس وسائر اللطائف الإنسانية. ولو لم توجد الفطنة لدى الأنبياء لما كان بإمكانهم الإجابة عن كل الاعتراضات والاستفسارات وإيضاح جميع المسائل المعروضة عليهم. ولو عجزوا عن القيام بهذا لأدى ذلك إلى نتيجة حتمية وهي عدم وضوح الدين وصعوبة فهمه. ولكي لا تحصل كل هذه النتائج السلبية كان من الضروري تجهيز الأنبياء بمنطق خارق للعادة، مما مكنهم من حل جميع المشاكل والعقد والمصاعب بيسر وسهولة. ومن الخطأ أن نصف هذا المنطق بـ«العبقرية»، لأن منطق الأنبياء فوق كل منطق، وهذه هي الفطنة.

المؤلف:
محمد فتح الله كولن

المترجم:
أورخان محمد علي

دار النيل
للطباعة والنشر

ISBN 975-315-175-6